أبحاث في القمة

الإنسان وعدالة الله في الأرض

تأليف

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

مؤسسة الرسالة

مكتبة الفارابي

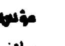

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان
وعدالة الله في الأرض

الطبعة الخامسة

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م





بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مكتبة الفارابي دمشق ص.ب ٢٣٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطّبعة الثّانية

لم أكن أتصور مدى أهمية الموضوع الذي عالجته في هذه الرسالة ، قبل ظهور الطبعة الأولى منها ، رغم ما كان يواجهني من الأسئلة الكثيرة حوله .

ولكني علمت فيما بعد ، أن هـذا الموضوع يعيش عقدة فكرية في أذهان طائفـــة كبرى من المثقفين والمفكرين ، على اختلاف عقائدهم ومشاربهـم ، ومن ثم فإنه يتخذ أحبولة رائعة من قبل رسل الغزو الفكري لإبعاد الناشئة المسلمة عن مجال الرؤية السليمة الصافية لحقيقة هذا الدين وجوهره .

علمت هذا من الفئات التي أقبلت على دراسة هذا الكتاب ، وأكثرها فئات ليست لها في دراسة الابحاث

الاسلامية أي تجربة سابقة . وليس عندها للإقبال عليها أي شغف أو تطلع .

ولقد اقترح بعضهم أن أتوسع في بعض نقاط هـــذا البحث ، وأفصّل القول في بعض مجملاته ؛ ولكني فكرت فرأيت أن أي زيادة فيه يخرجه من الانسجـــام مع هذه السلسلة من الابحاث التي ابتغيت لها أيسر سبل الاقتناء وأوجز العبارات في أبسط الاساليب ، حتى يتسنى لكل طالب معرفـــة ، أياً كان مستواه ومهما كانت شواغله وظروفه ، أن يفيد من أبحـاث هذه السلسلة ولا يجد أي عثرة في طريق فهمها .

وأنا أصر على أن هذه الأبحـــاث ـ بقطع النظر عن مدى التوفيق الذي يحالفني في معالجتهـــا ـ تقف في قمة ما يحتاج اليه هذا الجيـــل من المعارف والعلوم . ولست أزعم أن هذا الاسلوب الخفيف السريع يغطي أهمية هذه الأبحاث تغطية كاملة أو يشبـع سائر تطلعات الفكر حولها ولكني أعتقد أنه باب يلج معه صاحب الفكر الحر الى الإيمان بها والالتفات الى قيمتها ، حتى اذا بقيت له

بقية أسئلة فيها أو استيضاحات متعلقة ببعض جوانبها ، كان له من الشغف بمتابعة البحث والشعور بأهميته ما يدفعه الى التوسع الذي يوضح له كل خافية ويزيل من طريقه كل لبس

ولقد ابتلي أكثر الناس في هذا العصر ، بالقراءة الصحافية السريعة ، وهي تربية سيئة خطيرة تلقاها أكثر هذا الجيل في مدرسة هذه الصحف والمجلات . فهو حتى عندما يريد أن يعلم علماً عن أهم المبادىء المنطقية أو الفلسفية أو العلمية المختلفة ، يسلك للوصول اليها سبيل أسلوب من هذه الأساليب الصحافية الخفيفة ، فإن لم يجد ، قعد في مكانه واستغنى عن القراءة والبحث .

واعتقد أن أقدس مهمة للكاتب الواعي - في هذه الفترة من حياتنا - هي أن يصطفي من هذا الاسلوب الصحافي الخفيف مذهباً يتسم بالرصانة والضبط ، ثم يرتقي بالقارىء منه الى المستوى العلمي الكامل بكل ما لديه من وسائل التصعيد والتشويق .

★ ★

وبعد فإن الحديث عن « الانسان وعدالة الله في لأرض » يمكن أن يعالج في أدق الكتب الفلسفية والعلمية لعويصة كما يحب البعض ، ويمكن أن يعالج أيضـــاً في رسالة وجيزة سهلة المورد عذبة الأسلوب .

وشبابنا اليوم (بمجموعه) أحوج الى المنهج الثاني منه الى المنهج الأول .

محمد سعيد رمضان

دمشق / ٢٥ جمادي الثانية سنة ١٣٩٢

مقدّمة الطّبعة الأولى

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده ، سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



وبعد ، فقد تلقيت منذ حين سؤالاً هذا نصه :

« الله عادل ورحيم ، فلماذا ترك في المجتمع أشخاصاً كثيرين يعانون من دون ذنب ولا جريرة ، من عاهات ومصائب يتقطع لها قلب الانسان ، في الوقت الذي ترك فيه أشخاصاً آخرين يتقلبون في ألوان النعيم ، دون أي مزية لهم تستدعي ذلك ؟ وأين مكان العدل بين حال هذين الفريقين ؟ »

وهو سؤال طرح علي في قاعات الدرس والمحاضرات
وفي المناسبات والمجالس المختلفة ، مرات كثيرة ، لا أستطيع
حصرها في عدد معين ! ..

وأظن أن ثمة من يُعنى بزرع هذا السؤال في أدمغة
الناس ، ثم يعنى بإعادة زرعه فيها كلما أينع واستحصد
واستقبل الجواب الشافي المفيد .

وكأنما يتصور هؤلاء الذين يتعهدون غراسه بهذه الرعاية
العجيبة ، أنه عقدة العقد ، وأنه الضمانة لإفساد عقيدة
المؤمنين بربهم عز وجل ، وأنه يفعل في فكر أرباب التأمل
والبحث ما تفعله القنبلة الموقوتة ، ما تلبث أن تنفجر
بالدمار على كل ما هو مخزون فيه من القيم والمبادىء
الاسلامية المختلفة .

وشعرت ، إذ تنبهت إلى هذا ، بأن الإجابات الشفهية
على مثل هذا السؤال لا تكفي . بل لا بد من تسجيلها
باستيعاب وتفصيل ، في كتيب ، يكون في متناول جميع
هؤلاء الذين قد يطوف من حولهم هذا السؤال ، أو يحاول
التسلل - بشكل ما - الى أدمغتهم وأفكارهم .

وكنت قد نشرت مقالاً في مجلة « الوعي الإسلامي
الكويتية ، أجبت فيه إجابة مختصرة على هذا السؤال
ما أظن أنها وقعت موقع الكفاية في معالجة هذا البحث
من سائر أطرافه ، فاتخذت بما جاء في ذاك المقال نواة
بحث شامل ضمنته هذه الرسالة .

وأنا أقدمها الى فريقين من الناس .

أحدهما هذا الجمهور الكبير الذي يملك إيماناً بالله ورسول
واليوم الآخر ، ولكنه لا يملك ثقافة إسلامية كافية ، تدر
عن إيمانه الشبه والمشكلات التي يقذف بها اليه رسل الغزو
الفكري ، فهو لا يفتأ يتطلع - في شغف وإخلاص - الى
معرفة سريعة كافية في تبديدها والقضاء عليها .

ثانيهما قلة من الناس ، تسلل الإلحاد في دين الله الى
أفكارهم ، تحت وطأة ظروف استثنائية خاصة مرت بكل
منهم ، لا تعدوا أن تكون واحدة مما يلي :

وسواساً ألصقه بذهنه أحد الملاحدة المحترفين ، على نحو
خبيث ، إذ أيقظ زاوية من زوايا عقله لثورة فكرية

مادة ، على حين ترك الجوانب الأخرى تغط في رقاد ثقيل ، وراح عقله يتأمل الدنيا بما يشبه العين العوراء : يرى الأشيـــاء في غير جهاتها ، ويتخيلها أكثر من ذاتها . ويبصر فيها طيافاً من الوهم لا حقيقة لها .

أو عقداً نفسية استحكمت لديـــه ثم استفحلت بين جوانحـــه ، بسبب مظاهر دينية زائفة في الفكر أو السلوك ، رآها ، فخدع بها ، فاشمأزت نفسه من الدين كله من أجلهـا ، ثم تحول اشمئزاز النفس الى استجابة إلحادية في العقل .

أو صدمة بلاء أصابه فـــلم يقو على احتماله ، أو مصلحة دنيـــا لاحت له على البعد وتخيل أن ليس بينه وبينها إلا أن يجتاز قنطرة إلحاد وفسوق نصبت سبيلاً اليها ، فلما توسط القنطرة وجد نفسه حبيساً عندهـــا ، فلا هو اجتازها الى الغاية التي كان قد استهدفها ، ولا هو عاد الى البداية التي كان واقفاً عندها .

أجل .. فأنا أقدم هذه الرسالة الى كلا هذين الفريقين وربما كنت آمل الخير في اقبال الفريق الثاني عليها اكثر من الأول . واني لأعلم أن بينهم وبين أمثال هذه الكتب

حواجز استغلظت مع الزمن وأحداثه المختلفة .. فليس في
نفوسهم ما ينهضهم الى البحث عنها أو الإقبال عليها ، ا
مواصلة القراءة فيها .

ولكني أسأل الله تعالى ان يقيض من لدنه سبيلًا تصل
منه رسالتي هذه الى أيديهم وان يمنحهم من الصبر على قراءته
ما يجعلهم يتدبرونها في روية ويتأملونها على مهل .

فعسى ان يصحو الكثير منهم الى حقيقة الأمر ، وعسى
أن يبادروا فيتمسكوا بها بعد طول اعراض وذهول عنها
وعسي أن تستضيء قلوبهم بهدي الايمان بالله عز وجل قبل
أن يصل بهم قطار العمر الى آخر مراحل الحياة .

وحسبي من القارىء الكريم أن يكون حراً عندما يقرأ
لا يجعل من ثقافته وقراءته الجديدة مجرد غذاء أو سياج لأفكار
القديمة ، بل يتخذ مما يقرأ وافداً جديداً على عقله يوسع
له فيه مكاناً للفحص والبحث دون أي عصبية أو تحيز
ثم أن لا يقف عن مواصلة البحث ، مكتفياً بإدراك نصف
الحقيقة أو الوصول الى جزء يسير منها ، فإن إدراك جز
الحقيقة أشد ضرراً من الجهل بها . وما ضر الفكر الاسلامي
اليوم شيء كتلك الثقافة المجزأة المشوهة عن الاسلام إذ يقبل

يتلقاها الناس في ثنايا أبحاث صحفية سريعة تفيض بها الجرائد
والمجلات ، ثم يستيقنونها دون أن يتبعوها باي تحقيق فيها أو
استيعاب لها . وتصبح بعد ذلك تلك الثقافة المقلوبة المجزأة من
المسائل البدهيه فيه ، في وهم جمهور كبير من الناس .

★ ★

أما فريق ثالث ، اتخذوا من الجحود بالله والإلحاد في
دينه ، هواية لهم ، يتلمسون فيها سعادة قلوبهم وطمأنينة
نفوسهم ، ويتخذون من الدعوة اليها شغلهم الشاغل - فلسنا
من هؤلاء الناس في شيء ، ولا يغنيهم مثل هذه الأبحاث -
مهما كانت غنية بموازين العلم والمنطق - أي غناء ، وإنما
هم مثل أولئك الذين قال الله عنهم :

« ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ،
لقالوا انما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » .

ولكنا نسأل الله تعالى لنا ولهم الهداية الى الحق والوقاية
عن الضلال ، ونعمة التحرر الفكري عن أي تبعية أو عصبية
مما من شأنه أن يأسر الفكر والعقل .

والله ولي التوفيق

دمشق ١٠ ذي القعدة سنة ١٣٩١ **محمد سعيد رمضان البوطي**

هَل السَّائِل مُؤمنٌ بالله

يجري مثل هذا السؤال عادة ، على ألسنة أشخاص لا يؤمنون بالله ولا يقرون بوجوده . قد تجمع في نفوسهم من كراهية الدين وأصوله ما جعلهم يزدرون مظاهر الإيمان التي يتحلى بها المؤمنون ، ويخططون السبل والوسائل لبث الشكوك عن الله ووجوده في نفوسهم . فهم يصطنعون المشكلات اصطناعاً لإثارتها وحجب العقول عن معرفة الحق بغشاواتها .

وجحود الدين عند هؤلاء الناس متعة ذاتية استهوتها نفوسهم ، قبل أن يعرضوا أمرها على عقولهم . ولما طاب لأنفسهم ذلك وركنوا الى ثماره الشهية في الحياة والسلوك ، راحوا يسخرون طاقاتهم العقلية لشهواتهم النفسية ، وأخذوا يؤسسون على جحودهم السابق أحكاماً فكرية واعتقادية لم تتفرع إلا عن سلطان ذلك الجحود نفسه .

فقد وضعوا الفرضية كما شاءته أهواؤهم ، ثم شققوا وفرعوا عنها المقتضيات العقلية ، وراحوا يناقشون بها الناس ، وقد كانت أبعد ما تكون عنهم عندما أغمضوا أعينهم وغرسوا تلك الفرضية الأساسية الاولى في أعماق قلوبهم ! ..

إن شأنهم هذا أشبه بحال من اشتهى أن ينكر اختصاص باحث في علم من العلوم ، فمضى يسفه بناء على ذلك أفكاره . ثم أخذ يجعل من هذا التسفيه برهاناً على ما كان قد ادعاه من جهله وعدم خبرته واختصاصه .. وهو لو تنبه الى أمر نفسه لعلم أنه دائر وسط حلقة من وهم تصوراته . فلولا ما توهمه أولاً من جهل الباحث ، لما تصور أبحاثه سفاهة وخطأ . ولولا هذا التصور لما عثر على أي برهان على صدق وهمه الأول .

أي فهم لم يتوفروا ـ بادىء الأمر ـ على يقين صادق بوجود الله تعالى . إذ لو توفروا على ذلك ، لأيقنوا أنه أحكم الحاكمين فالإله لا يكون إلا كذلك . ولو أيقنوا ذلك لآمنوا برسالات الأنبياء وما تضمنته من تعريف

بحقيقة هذه الحياة الدنيا ومبدئها ومنتهاها وعلاقتهـــا بما وراءها . ولو آمنوا بذلك ، لأدركوا سر وجود الانسان في الكون ، وتنبهوا الى الأمانة التي حملهم الله إياهـا في هذه المرحلة من الحياة..ولأدركوا إذاً أن ليس في شيء من مظاهرها ما يثير في النفس إشكالاً أو يرد الباحث الى أي شك أو جحود ، ولوجدوا كل ما فيها متسقـاً مع طبيعة هذه الأمانة أتم ما يكون الاتساق ، وأنه يشكل أدق وأقوم تمهيد لواقع الحياة الخالدة الأخرى .

أجل .. كل هذه المدركات اليقينية ، إنما ينبع من يقين عظيم آخر سابق عليه ، هو الإيمان بالله عز وجل . ولن ينتهي من دونه لغز هـــذا الكون ، ولا يتخلص الفكر بغيره من دوامة نظر عابث لا طائل منه .

وهؤلاء الذين يتعامون عن هذه الحقيقة الواضحة للعيان إنما يدورون وسط حلقة مفرغة لا طرف لها . وقـــد ارتضوا أن يفعلوا بأنفسهم ذلك ، أمـــلًا بأن تنعكس دوامتهم الفكرية على آخرين من حولهـــم ، عسى ان

يقعوا صرعى في شرك أوهامهم ، ثم لا يجدوا سبيلا للانفلات والخروج ! ..

وهؤلاء الناس ، ما ينبغي أن يُلتفت اليهم ببحث ولا نقاش ! ..

وإن كان ثمة من سبيل الى كلمة تقال لهم ، فلتكن جملة لا مزيد عليها ، وهي :

دعوا البحث في هذه المسألة الفرعية ، فلو اجتمع أهل الأرض كلهم من حولكم ليجيبوا عليها ، لما وقع كلامهم من عقولكم أي موقع للقناعة والقبول . وعودوا الى النظر في المشكلة الحقيقية الاولى ، مشكلة الذهول عن الإيمان بالخالق جل جلاله . واطرحوا السؤال والبحث ضمن هذه الحقيقة الجذرية الأولى دون أن تروغوا عنها الى مثل هذه الاوهام التي لم تتفرع إلا عن جهلكم بها وقفزكم من فوقها .

★ ★ ★

إلا أن من حول هؤلاء الناس جماعات أخرى ، لم

يكفروا بالله مثل كفرهم ، ولم يحترفوا دعوة الإلحـــاد احترافاً ، وربما كانوا على جانب من الإيمان بالله ووحدانيته . ولكنهم لم يتوفروا على دراية كافية تشبع تطلعاتهم الفكرية في مجال العقيدة الاسلامية وأسسها ، فتهزهم هذه الأسئلة التي يطرحها محترفو الغزو الفكري ، ويقعون منها في اضطراب ووساوس لا يهتدون الى سبيل للتخلص منها . فكان لا بد من الاجابة عليها بتبسيط وتفصيل ، لا لإسكات محترفي الإلحاد ، بل لتفهيم من يصدقون في طلب الفهم ، وما وجدت عبادة يتقرب بها الى الله عز وجل أفضل وأعظم من أن تعثر على إنسان ضيعه الماكرون عن الطريق ، فتقبل اليه في رحمة وأناة لتضعه على فم الطريق السليم .

وصلى الله وسلم على من قال : لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس (١) .

---

(١) متفق عليه .

مَا مَعْنى المِحْنةِ ؟

ونحن نبدأ فنقول : ما معنى المحنة ؟ .. ومن أن لك أن المحنة لا تتمثل إلا في هذا الذي بترت يده أو عميت عينه أو استحكمت به عاهة ؟ .. بل من قال لك : إن المحنة هي تلك التي يصطبغ بهـــا ظاهر الانسان وتتجسد واضحة في ناحية من أنحاء جسمه ؟

إنما المحنة ما تسلل الى طوايا النفس ، فأصاب بمرارته أو بحرقته القلب .

والمحنة اذاً ليست هذا الذي تراه عيناك من مظاهر بعض الناس ، وإنما هي ما لا تراه عيناك ولا يدركه شعورك مما قد يطوف بنفوسهم ويستحكم بأفئدتهم ومشاعرهم . وسبيلها اليهم أعم وأشمل مما قد تظن .. وما من انسان إلا وهو واقع فيها وذائق من عذابها .

وأصل الخطأ في هذا الأمر أنك قد تجد رجلا أصم أو أبكم في الطريق، فيهتز فؤادك إشفاقاً على حاله، وتجزم بأن نفسه تتقطع بين جنبيه ألماً ، وأن قلبه يذوب حسرات. وتبصر آخر الى جانبه ينهب الأرض بسيارته الفخمة وقد لاحت هالة السعادة والغنى حول وجهه فتجزم بأن نفسه ترقص بين جنبيه فرحاً، وأن له قلباً لا يستفيق من سكر السعادة والانشراح.

نجزم بهذا وذاك، وأنت لم تطلع على قلب أحد منهما. ولو اطلعت ، لعلمت أن المقياس الذي اعتمدت عليه غير مطرد الدلالة على ما ظننت وأن أسباب السعادة والشقاء لا تنحصر في تلك المظاهر التي تتلبس الجسم. ومن أكبر الخطأ أن تربط بين حالة القلب وهذه المظاهر.

إن الذي تضل به سيارته عن طريق غايته ، ويقع في تيه لا يدري الى أي مصير سيسلمه ، انما يعاني من محنة خانقة، ولو كان محفوفاً وسط ضلالته تلك بخضرة الرياح وفوح الرياحين.

والذي أوقعته ظروف التجارة ومغبانها ، في خسارة مالية غـــير متوقعة ، وهو ممن يرقص لمرأى القرش ، وتأخذه النشوة لحركة توالده وتزايده ، انما تتقطع نفسه حسرات تحت رحى محنة قاسية يعجز عن وصفها البيان ، وإن كنت تراه في عيش رغيد وسط دار جميلة آمنة .

والذي تعلق قلبه من الدنيا بحسناء ، وراح يتصور أن ألوان النعيم كلها ستفيض في كيانه إن هو سكن اليها ، وفيما هو ينسج في خياله الآمال ، ويحدث الدهر عن أمانيه ، ويأمل عنده الخير في انجازها ، إذ ضرب الدهر بينه وبينها بسور غليظ حال بينه وبين جميع آماله ـ هذا الانسان يلتف به من سعار المحنة ما يشبه أكفانا من اللهب ، لا تطفئها عنه أفراح الدنيا كلها ولا فنون اللذة بأمرها . وقد تبصره فلا تقع عينك منه إلا على ما تغبطه فيه أو تحسده عليه .

والذي ساقـــه الشقاء الى حياة من اللهو والإباحية المطلقة ، فهو يسهر الليل كله في معاقرة اللذة واعتصارها ، حتي إذا أقبل النهار طارده بنوم ثقيل متواصل ، ولا يزال

هذا دأبه ولون حياته - إنما تحسبه سعيداً ، وهو يميس في حلة (السهرة) تحت أضواء من الليل ساطعة أو خافتة ، ولو علمت دخيلة أمره ، ووصلت الى طوية نفسه ، لرأيت وراء صدره مرجلاً من الهم تصاعد منه الزفرات المذيبة الخانقة ، ولرأيت النوم في حساب حياته ليس إلا « كابوساً » من سحائب الغم والنكد ، يتغشى الظاهر والباطن من شعوره وعقله ، على حين لا يكون في حساب سائر الناس وشعورهم إلا واحة من الراحة والنعيم يتفيئون ظلالها كلما فاض بهم الجهد والنصب .

والذي استغلقت عليه منافذ الإيمان بالله تعالى . فتتابعت على فكره الاسئلة المتنوعة المختلفة عن الكون والانسان وسر وجوده وعاقبة أمره ، دون أن يجد عليها جواباً شافياً ، وثارت في نفسه عوامل الرعب والألم للذي يراه حوله من مظاهر الهرج والمرج والتطاحن والعدوان والبغي ، حتى راح يتخيل مظاهر الترف والنعيم خلال ذلك أشبه ما تكون ببروق مرعبة خاطفة تومض في ليلة

عاصفة ظلماء ، فهي تنذر بالشر أكثر مما تؤنس أو تنير السبيل ، دون أن يهتدي من وراء ذلك كلـــه الى سر ولا تأويل ـ هذا الانسان قد تراه فتحسبه سعيداً ، وهو إنمـا يعيش في رعب مطبق على نفسه . ولو أبصرت ، لوجدت المحنة تتسلل منهـــا الى جذور تفكيره وعقله ، لتقذف بـــه أخيراً إما الى ساحة جنون او إلى سبيل انتحار (١) .

وبالمقابل ، فان كثيراً ممن سلبهم الله تعالى نعمة البصر يتمتعون بنفس راضية سعيدة لا تعرف الهم .

---

(١) كثيراً ما زارني شبان يشكون عقــدة الحيرة الفكرية في حياتهم ، وقد اطلعني الكثير منهم على واقع أليم يعيشون فيه قد يزيد كثيراً على ما يعانيه أصحاب المحن والمآسي الظاهرة وهم جميعــاً يتمتعون فيما يبدو بكل ما يعتبره الناس من أسباب الرفاهية والنعيم، ومن أهم مظاهر هذا البؤس أن صاحبه يشكو اليك حاله دون أن يملك وضع يدك على مكمن الداء فيه وهذا ما يزيده ضجراً واختناقــاً . ومن أهم مظاهره ايضاً تزايد من يسمونهم بالاطباء النفسانين في كل مكان وتزايد النشرات والكتب التي تتعلق بهذا الموضوع واقبـــال الجمهور عليها بشدة دون أن ترى أي فائدة لشيء منها .

وكثير ممن ترى عليهم أشد مظاهر البؤس والفقر
تظل أفئدتهم نابضة بمرح رائع عجيب قد لا تتصوره إلا
في ذكريات طفولتك .

وكثير ممن ترى الأمراض والاوجاع مستحكمة في
جسومهم ، يعيشون وسط مزيج من الشعور بآلامهم والرضى
القلبي العميق عن واقع حياتهم وما أقامهم الله تعالى فيه

على أني لست أقصد بهذا أن المحن الظاهرة على الجسم
مصائب وهمية لا سلطان لها على النفس ، وإنما أريد ان
ألفت نظر القارىء الى ان العبرة بما تشعر به النفس
وبما قد تتلون به حالة القلب ، وأن أوضح بأن المصائب
التي قد يكون لها سلطان على المشاعر ، ليست محصورة
في هـــذا الذي تراه متلبساً بظهر بعض الناس ، فترق
لحالهم او تتألم لما هم فيه ، بل هي مختلفة متنوعة ، وقل
ان ترى رجلا من الناس إلا وهو مصاب بنوع منها .

ونقول ، في كلمة مختصرة : ليس الشقاء الذي قد ينزل
بأحد الناس نابعاً من وقع المصيبة ذاتهـــا مهما اختلفت

تنوعت ، وإنما هو تابـــع من عدم اتساع النفس لها واستعلائها عليها .

وإذاً ، فإن اول ما ينبغي ان تعلمه من الجواب على هذا السؤال ، انه يقوم على خطـــأ بالغ في صياغته وتركيبه . وإذا ما أريد عرضه بصياغة سليمة ، ينبغي ان يوجه على الشكل التالي :

لماذا يتفاوت الناس في مشاعرهم القلبية ما بين ضيق وانشراح ، وقد كان ظاهر الرحمة والعدل الإلهي يقضي بان يتساووا في مشاعر السعادة والانشراح ؟! ..

سَبيلَان لاثالثَ لَهُمَا

وإذا تأملت ، علمت انه لا سبيل امام الانسان لاحرا
مشاعر الرضى والانشراح في قلبه ، إلا باحدى وسيلتين

الوسيلة الاولى : أن يملك الانسان طاقة خارقة يبعد
بها عن نفسه حديث الفكر وتشويش العقل ومنغصات
الخيال . إذ إن اكثر ما يصاب به الانسان من اكدار
القلب وهموم النفس ، إنما يأتي بسبب طول التفكر
او ملاحقة التخيل او تساؤلات العقل . يذكر الماضي فيألم
لما قد فاته من مظاهر الخير واسبابه ، ويتخيل المستقبل
فيألم لما قد يتصور فيه من المنغصات واسباب الآلام ،
فتتحول بذلك لحظات الحاضر التي تمر بحياته الى مورد
لهموم الماضي ومخاوف المستقبل .

فلو أتيح له ان يلجأ الى النسيان والأمل ، او الى

لذهول والاعراض ، لانزلقت عن قلبه المصائب فما شعر
ا وما أهمه سوء وقعها .

ولكن الفاطر الحكيم جل جلاله ، لم يشأ ان يعطي
لانسان ، العزيز الكريم ، هذه الطاقة .

بل أثقله بأعباء جسيمة من المشاعر والفكر والعقل ،
وحمله الى ذلك أثقالاً عظيمة من صور الماضي وآثاره ،
وأخيلة وتقديرات مختلفة مما يحمله في طيه المستقبل .

ذلك لأن الله تعالى جعل الانسان سيد هذا الكون ،
ووكل اليه أمر عمارة الدنيـــا وتدبيرها وفي سبيل ذلك
سخر له ما فى السموات والارض وأسبـــغ عليه النعم
المختلفة ظاهرة وباطنة .

وإنما يقوم تدبير الدنيا على خيال يتذكر الانسان به
الماضي ، وفكر يحذره من وقائع المستقبل ، وعقل يمزج
هذا بذاك ويستخرج منهما قواعد الحياة ومناهج التدبير .

فالخيال يتصور ولا مناص للانسان من الانفلات عنه ،
والفكر يتنبأ ولا مفر الانسان من التغاضي عنه ، والعقل

بينها يقدر ويدبر وليس من سبيل للتحرر منه ، وكل هذ
الأمور الثلاثة تظل مشحونة بما تفور به الدنيا من أسباب
الخير والشر واللذائذ والآلام .

من أجل هذا ، كان الذين يملكون طاقة التحرر مر
هذا كله هم المجانين فقط ! .. ولذلك كانوا صفوة الناس
في عدم شعورهم بشيء من الأكدار والهموم .

وإذاً فهذه الوسيلة ممنوعة عن العقلاء ، وقد قضى ال
تعالى بان يكونوا أكرم من ان ينزلوا اليها فيفقدوا بذلل
المزية التي ارتفعوا بها عن سائر اصناف الحيوانات .

الوسيلة الثانية : ان يوقن الانسان بوجود الله عز وجل
ثم يلقي السمع الى بيانه عن حقيقة الانسان وهويته وعر
قصة هذه الحياة ونشأتها ومراحلها ، وعن مسؤولية الانسار
فيها ، فيدرك انه عبد مملوك - بكل معنى الكلمة - ل
تعالى ، ويستيقن وجود الحياة الآخرة وقيمة هذه الحيا
الدنيا بالنسبة لها .

ثم أن يقف طويلا عند قوله تعالى : (ونبلوكم بالشر

والخير فتنة وإلينا ترجعون) وعند قوله عز وجـــل :
وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ، وكان ربكَ بصيراً) ،
وعند قوله عز وجل : (ولنبلونـّكم بشيء من الخوف والجوع
ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين) -
فيدرك منها وظيفة الانسان امام خالقه في هذه الحياة الدنيا ،
الا وهي ممارسة حقيقة العبودية لله عز وجل ، بان يرضى ،
في طواعية وخضوع ، بكل ما قد قضى وحكم عليه به ،
فلا يضجر إن اصابه بلاء ، ولا يتمرد على حكم الله إن
اطبق عليه أي كرب . ثم يدرك ان الله عز وجل احكم
الحاكمين واعدل العادلين ، فلا يضيع للانسان جهداً بذله
في سبيل خير ، ولا يهمل له حقاً اغتصبه منه ظالم ، ولا
يترك له اي ظلم اقترفه او جريرة اكتسبها ، بل يقضي بين
عباده في ذلك كله يوم الجزاء الموعود . فمن يعمل مثقال
ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وهذه فقط هي الوسيلة التي يمكن للانسان ، إذا شاء ،
ان يحرز عن طريقها لنفسه مشاعر السعادة والرضى ، مهما
تقلبت عليه الاحوال والظروف .

وهي الدواء الوحيد الذي وضعه الله تعالى علاجـــا للانسان للتخلص من هذه المشكلة التي يسأل عنها ويبحث عن خلاص منها .

فأنت لا تستطيع ان تتحكم في نظام الكون ولا ان تبدل او تغير شيئاً من مظاهر سنة الله فيه ، فهو كون ألفه الله منذ ان خلقه ، من شتى مظاهر الخير والشر ، والبؤس والنعيم ، واللذائذ والآلام .. ولم يقدر الى هذا اليوم احد ، ولن يستطيع بعد اليوم احد ، ان يغير فيه شيئاً من هذا المزيج او ان ينسخ شيئاً من شروره وآلامه

ولكنك تستطيع ان تتحكم في مشاعرك واحاسيسك التي بها يتكون معنى كل من الخير والشر . تستطيع ان تتحكم بمشاعرك نحوهما باتباع هذه الوسيلة الثانية التي أجملت لك بيانها .

والى هذه الوسيلة الاشارة في حديثه عليه الصلاة والسلام : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا المؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن اصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

سِرُّ هٰذا كُلِّهِ !.

وقد تسأل : ففيم شاءت إرادة الله تعالى ان يشحن هذه الحياة الدنيا بمزيج من الخير والشر واللذائذ والآلام وقد كان قادراً على ان يجعلها مزدانة بأسباب اللذة وحدها صافية عن الأكدار والآلام .

بل فيم أرهق الانسان بعقل يحمل هذه الأثقال كلها ، حتى يعيش مهيضاً حائراً تحت وطأتها ، ولم يكن مستحيلاً على الله تعالى ان يحمله نعمة العقل دون ان يربط به ذيولاً من النتائج المؤلمة .. بل فيم كانت المعرفة مقرونة بنكد الحياة ومصائبها ؟

والجواب : ان إرادة الله تعالى شاءت ان يكون الانسان اعظم مظهر لألوهيته سبحانه وتعالى ، وأبين لسان ناطق بسر الوجود كله . والشكل الذي شاءت حكمة الله

ان يظهر فيه ذلك كله ، هو عمارة الكون عن طريق بممارسة العبودية الصادقة له [1]

وبممارسة العبودية الصادقة لله تعالى ، لا تتم ، إلا بأن يكون الانسان عبداً لله تعالى بالسلوك والاختيار ، كما قد قضى عليه بالعبودية له بالخلق والاضطرار . أي بان يعترف بحقيقة العبودية الكامنة في طبيعته البشرية ثم ينسق ويلائم بين هذه الحقيقة الكامنة في ذاتة ، ومختلف تصرفاته الارادية

---

(١) ليس لك ان تتابع السؤال فتقول : فلماذا شاء الله تعالى ذلك ، لان أي جواب يرد عليه يمكن ان يقابل هو أيضاً بنفس السؤال : فلماذا شاء الله ذلك . وملاحقة البحث في أفعال الله تعالى بهذا السؤال خطأ كبير . لانك إنما تتخيل أن ثمة ما يجبره على تصرف معين ـ على نحو ما يكون منا نحن البشر ـ فأنت تسعى لمعرفة هذا السبب المجبر ، وهو خيال خاطىء لا موجب له ، لان ارادة الله تعالى تامة لا يشوبها نقص بسبب ما يجبره أو يحمله على شيء ما كعادة البشر . وإنما لك أن تسأل عن الحكمة فقط ، وقد أوضحنا الحكمة فيما مضى ، والله يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل . وذلك من أوضح مستلزمات الوهيته

والسلوكية في حياته ، فبذلك يخضع الانسان لمعنى عبوديته لله عز وجل .

وإنمـــا يظهر ذلك التنسيق والتلاؤم بقبول التكاليف الواردة اليه من الله تعالى ، أي بقبول السير في طريق من الحياة فيها كلفة ومشقة ، لا لشيء إلا ابتغاء الحصول على مرضاة الله عز وجل .

ولا يتم شيء من ذلك إلا بتكامل أسباب الأهلية في الانسان من عقل ورشد وسلامة تفكير ، بما يستتبعه ذلك كله من مخاوف وآمال .

ولما كانت مادة التكاليف مستمدة من الحيـــاة وما فيها ، فقد كان لا بد إذاً أن تكون الحياة مزيجاً من المسرات والمتاعب واللذائذ والآلام .

وأي استشكال او اعتراض على هذا الكلام ، انما يعني التبرم بالتكاليف التي شرف الله الانسان بهـا . ومثل هذا التبرم لا يُلتفت اليه وليس للمنطق سبيل الى النقاش فيه . فإن الذي يعترض قائلاً : لماذا جعلني الله عبداً له ولم يملكني أمر نفسي لأتصرف كما أريد ـ لا يملك المنطق السليم

جواباً على اعتراضه إلا أن يحيله الى صاحب العلاقة ذاته .
فليتقدم الى رب العزة جل جلاله يوم القيامة ـ إذا شاء ـ
بهذا الاعتراض وليسأله لماذا جعله عبداً له ولم يملكــه
أمر نفسه !!! ...[1]

★ ★

(١) قد يكون مثل هذا المعترض غير مؤمن ـ في طوية نفسه ـ
بوجود الله عز وجل . ولكنه طالما لا يكشف عن حقيقة جحوده
ويخادعها بهذا الكلام ، فان هــذا هو الجواب المنطقي السليم .
أما عندما يضطر الى الكشف عن كفره ، فان كل هــذه الجزئيات
الفرعية يغدو حديثاً غير ذي موضوع لانه سابق لأوانــه ولا بد
من الرجوع عندئذ الى أول الطريق وأساس المسألة كلها وهو البحث
في وجود الله عز وجل .

ينبُوع التّكاليفِ وَالمشقّاتِ

ثم إن قوام مشقات الحياة التي تنهض التكاليف الإلهية على أساسها ، أمران اثنان :

صعوبات يراد من الانسان الصمود لها والصبر عليها ، وخيرات يراد منه الشكر عليها والكف عن الاستغراق فيها . وكلاهما يدخل تحت قاسم مشترك من مشقات الحياة وشدائدها.

وأنت قد تظن ان مشقات الحياة محصورة في القسم الاول منهما ، وأن الثاني أبعد ما يكون عن معنى المشقة والتكليف ، وقد تسخر قائلاً : ومن الذي يبتلى بامتلاك كنز من المال ثم لا يرقص فؤاده فرحاً بهذا الابتلاء ؟!

ولكن اعلم أن هذا التصور خطأ فادح ، سببه عدم فهمك للمعنى المقصود بهذا الابتلاء . واليك بيان ذلك :

إن محور الابتلاء بالنسبة لمن اغدق الله عليه الخيرات ، إنما هو تكليفه بالشكر عليها .

وليس معنى الشكر ما قد تظنه من تحريك اللسان بالثناء وإنما هو تسخير الانسان جميع ما أنعم الله به عليه لما قد خلق من أجله . أي ان لا يستعمل شيئاً من تلك النعم في أمر غير مشروع ، وليس هذا فقط بل عليه ان يستخدمه في سبيل المبدأ الذي خلق من أجله ، فإن لم يفعل ذلك ، وانحرف في الاستفادة من تلك النعم ، عن هذا الصراط الذي ألزم به ، انقلبت النعمة كلها وبالاً وشقاء عليه فيا بعد .

وإنما مثال ذلك رجل فقير معوز تهفو نفسه بشدة الى نعيم الدنيا بشتى صنوفه وألوانه ، آتته الدولة مالا وفيراً وجعلته تحت سلطانه ، ولكنها شرطت عليه ان يقف من هذا المال موقف الحارس الامين ، وأن لا ينفق منه على نفسه الا قدر الحاجة وضمن شروط معينة . فان تجاوز الشرط وتوسع في الانفاق عوقب على ذلك العقاب الشديد .

فما من ريب ان هذا الرجل اذا أفلح في السيطرة على نوازع نفسه ، فوقف عند الحدود التي ألزم بها ، ثم أمسك يده عن المال الذي هو تحت سلطانه ، وفطم نفسه عن تطلعاتها

وشهواتها ، كان من عداد الابطال في القدرة على ضبط النفس وتحقيق مبدأ الامانة في أشق الظروف والاحوال .

أجل .. ان الرجل الذي يرى مختلف شهوات الدنيا وملاذها تبرق له مزينة فتانة خلف ابواب كثيرة مغلقة ، وينظر ، فيجد أن الاقدار قد وضعت مفاتيح سائر هذه الابواب في يده ، ثم لم يستعمل منها الا المفتاح الوحيد الذي شرعه الله له ، وترك الابواب الكثيرة الاخرى مغلقة امامه ، يتراءى له من وراءها النعيم الذي هو في متناول يده وهو صابر ومعرض عنه ـ هذا الرجل يعاني من صعوبة قد تفوق الصعوبة التي يعانيها من ابتلي بفقر اضطراري فرضي كارهاً به .

ان الفقير الذي لم يكن له في فقره اختيار ، ليس امامه لمعالجة ذلك إلا سبيل الصبر ، شاء ذلك او لم يشأ . اما الغني الذي يملك بغناه مفاتيح الشهوات والملاذ المختلفة التي يدري طعمها ويعلم مدى ما تهفو نفسه اليها ، ثم يستعلي فوقها ولا يتلقف منها الا ذلك النزر اليسير الذي يخضع للشروط والقيود

الشرعية التي وصفها الله عز وجل[1] - فان له من فضيلة هذا السلوك الاختياري ما يجعله في مرتبة اسمى من ذلك الفقير الذي لم يكن له في فقره اي اختيار .

من اجل هذا اجمع جمهور العلماء على ان الغني الشاكر أفضل عند الله تعالى من الفقير الصابر . إذ الحقيقة ان كلاهما صابر ، ولكن احدهما صابر عن شيء يملك ان يناله ويستمتع به

---

(١) نقول : النذر اليسير ، لأن الاصناف المشروعة من مظاهر النعيم والشهوات الدنيوية ، تعد - إذا ما قورنت بغيرهـا - نزراً يسيراً ، خصوصاً اذا ما علمت أن كل ما يشغل العبد عن ربـه من مظاهر الرفاهية والنعيم يعد وبالاً على الانسان وشراً له في عقبـاه . وهذا معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه . على أن المباحات نفسها قـد تنقلب في حالات كثيرة فتدخل في أصناف المحرمات . وذلك عندما يقصد بها مثلاً السمعة والمباهاة ، او عندما تكون سبيلا للذهول والانصراف عن شيء من الواجبات والعبادات . ورب بيت يقـوم في مظاهره الجزئية على مجموعة من التصرفات والشؤون المباحة ، ولكن هـذه الجزئيات تدخل ضمن دائرة عامة من اللهو والاعراض عن حقوق الله تعالى والانسلاخ عن جوهر العبودية له ، فينقلب ذلك كله الى سلوك محرم ذي وبال عظيم

والثاني صابر عما لا يملك سبيلاً للحصول عليه . والتفريق بينهما سمي الاول شاكراً والآخر صابراً ، ولبيان أفضلية الاول وندرته يقول الله تعالى : وقليل من عبادي الشكور .

وهكذا تعلم إذاً ، أن الابتلاء بالغنى وأسباب النعمة والرخاء ، ليس أقل خطورة وصعوبة من الابتلاء بالفقر وأسباب الشدائد الاخرى . وتأمل كيف أوضح البيان الإلهي هذه الحقيقة ، عندما بسط مفهوم الابتلاء على كل من الخير والشر فقال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) .

الذين لا يفهمون هذا الكلام

ومع ذلك ، فان فريقاً من الناس قد لا يفقه شيئاً من هذ
الحقيقة التي أوضحناها ، ولا يقنع بها . وربما ظل يقول ساخراً
فليبعد الإله عني اسباب الشرور والفقر ، ثم ليمتحني بشدائ
الخير والغنى كما يريد ، سواء نجحت او رسبت في الامتحان !.
أي فهو لا يرى في الابتلاء بنعيم الدنيا شيئاً من حقيق
الشدة او المشقة التي وصفناها .

وعذر هذا الفريق ، أنهم غير مصدقين ـ في أعماق
نفوسهم ـ بوجود الله عز وجل وباليوم الآخر وما يستتبع
من حساب ونعيم وعذاب خالدين يرتبطان بسلوك الانسان
في هذه الحياة الدنيا .

وإنما محور حديثنا كله ، في شرح هذا الموضوع ، ه
الايمان اليقيني بوجود الخالق الواحد الأحد جل جلاله
والايمان بصدق ما أخبر به في كتابه ، وعلى لسان نبي

محمد عليه الصلاة والسلام ، بل على لسان سائر الأنبياء من قبله عليهم صلوات الله وسلامه ـ من قيام الناس جميعاً بعد موتهم لرب العالمين وقدوم كل منهم على جزاء ما قد فعل في دنياه من خير وشر .

فأما من لم يضع في حسابه هذا المحور الاساسي ، فشيء منطقي جداً بالنسبة اليه أن لا يصدق شيئاً مما نقول ، لأنه لا يقف معنا على الارض التي تحتضن جذور هذه المسألة من حيث هي . ولكن ليس منطقياً أبداً ، ان يتجاهل اختلافه معنا في هذا المنطلق الاساسي ، ثم يمضي يضيع الوقت الثمين في مناقشة هذه المسألة الفرعية الصغرى .

وعلى كل فنحن نتمم شرح هذه المسألة من شتى الجوانب والاعتبارات ، فنقول :

إن الابتلاء بالخير ، بالمعنى الذي أوضحناه لا يسمى ابتلاء عند من لم يفهم معنى هذا الوجود على حقيقته ، ولم يتعرف على هوية نفسه وقصة رحلته الخطيرة في هذا الكون .

بل ان الطبيعي بالنسبة اليه أن يمارس مختلف أسباب

هذه الدنيا التي من حوله ، كدابة تفتحت عيناهـا على معلف أمامها ، فانحطت برأسها فيه ، دون ان تدرك شيئاً آخر من حولها او مما قد يراد بها .

إلا أن جهل هذا الانسان ، لا يغير شيئاً من الحقيقة التي يعلمها ويوقن بها الآخرون ! .. فان الماء الذي يشربه أحد رجلين ، وهو لا يدري ان فيه سماً قاتلاً ، لا يغير من طبيعة الماء والسم الذي فيه ، ولا يجعل زميله الآخر جاهلاً متشككاً ، اذا ما أتيح له ان يطلع على السم الذي قد مزج بالماء فحذر منه . وبناء على هذا الاختلاف في العلم ، فإن اقتراب هذا الماء ، في كأس رقراقة مغرية من فم هذا الشخص الثاني - على حالة من الظمأ الشديد - يعتبر ابتلاء يتطلب منه قدراً من الصبر والثبات ، على حين لا يعتبر ذلك بالنسبة لزميله الاول إلا نعمة عظمى تبعث على الفرح والسرور . ولكنه نعمة في وهمه هو ، فلا يقـام عليه اي أساس من المنطق الموضوعي الناظر الى حقيقة الأمر .

وهكذا ، فالرجل الذي يرى ان الدنيا هي الفرصة الوحيدة للحياة ، فلا حياة أخرى من ورائها ، لا يفهم ضرورة الصبر على بلائها اي معنى ، ولا يرى للشكر الذي ذكرناه على نعمها أي دافع . فهو لا يحمل نفسه من أجل ذلك صبرا على ضر ، ولا شكراً على خير .

وهذا الصنف من الناس ، هو الذي تراه دائماً يجأر بالشكوى من المصائب ، ويظل ينشد العدالة الالهية ويبحث عن مصيرها . إذ هو لا يدرك للسعادة او الشقاء معنى الا ضمن حدود هذه الحياة الدنيا . ومن ثم فهو لا يقتنع منك بشيء مما قد تحدثه عن فلسفة الصبر او الشكر .

ولهم الحق كله في ان لا يفهموا ما يفهمه المؤمن بالله من معنى الصبر والشكر ودوافعها . ولنشرح سبب ذلك بالنسبة لكل منها .

أولاً - لهم الحق ان لا يفهموا شيئاً عن الصبر :

فإن الصبر في حقيقته ليس أكثر من تعلق الأمل بخير متوقع .. فإذا لم يكن ثمة أمل ، فلا صبر ، بل لا معنى

عندئذ للصبر . وليس معنى تحمل الضر عندئذ إلا الخضوع
القسري لعذاب لا ثمرة له ولا مناص منه . وجدير بمن
كان هذه حاله ان يختنق او ينتحر .

إن الذي كتب عليه السير ضمن مغارة ضيقة مظلمة
وطال عليه السير فيها ، دون ان يتوقع لها نهاية تنفذ به
الى متنفس سعيد يستنشق منه الهواء والضياء ، لا يعتبر
سيره او بقاؤه فيها من الصبر في شيء ، وانما هو سير
وئيد او سريع الى الانفجار او الاختناق .

أما ذاك الذي يسير الى جانبه وسط تلك الظلمة ذاتها
وهو موقن أنها الطريق الطبيعي الوحيد الى جنة غنـــاء
وارفة الظلال ، فإنه لا يحس من كل ما حوله الا بالأمل
لذي يراوده ، ولا يرى من الظلام المطبق عليه الا صورة
لضياء الذي ينتظره .

وهذا هو الصبر الذي أمر الله عز وجل عباده به في
كثير من آيات كتابه .

ليس صبراً لا نهاية له على عذاب دائم خانق ، وإنما صبر في طريق لا بد منها ، الى الغاية التي لا شك في جودها ولا مرية في انتهاء الانسان اليها . وبمقدار ما أمر لخالق عباده بالصبر ، أكد لهم حقيقة الامل ، وجزم م ان مضمونه حقيقة واقعة لا ريب فيها .

وعلى الذي يظل يشكو من ظلام السرداب الذي يسير فيه ، أن يشكو من جحوده بالنهاية التي تنتظره راء الظلام .

على الذي يريد ان يحاسب الله عز وجل على عدالته نظام سيرها في هذه الحياة الدنيا ، ان يحاسب نفسه لا على انكاره ليوم آت لا ريب فيه يتم فيه الحساب بعد طول إمهال وتتجلى فيه العدالة الالهية بأتم مظاهرها أدق أحكامها .

نياً ـ ولهم الحق أن لا يفهموا شيئاً عن الشكر :

لأن الانحباس في طريق الشكر وتبعاته ، لا معنى له

أيضاً عند من لم يؤمن بعد ، بوجود من ينبغي عليه شكره ، او هو مؤمن به ولكنه لا يستشعر الخوف من عقابه إن هو استغرق في النعم التي سيقت اليه ولم يستعملها ضمن حدود معينة وبحساب معلوم .

ويركب مثل هذا الانسان رأسه مستغرقاً في لجة النعيم جارياً وراء المتعة حيثما لاحت ، ويتوهم أن ذلك هو السعادة .

إلا أن حاله هذه لا تعتبر مقياساً حقيقياً للسعادة - كما أوضحنا - وإنما سعادته وهم قائم في خياله وخيال من قد ضل ضلاله وذهل عن العاقبة مثل ذهوله .

ان كل عاقل يعلم ان الذي يتقلب في نعيم محظور متوعد عليه من قبل من لا كذب او اخلاف في وعيده ، لا تغبط حاله ولا يعتبر سعيداً إلا في وهم نفسه بسبب الجهل بمصيره .

أما من آمن بالله ، وصدق بوعيده وعذابه ، فإنه

يساق ، بمزيج من دافع إيمانه بالله ومحبته له او خوفه منه ـ الى ضبط نفسه ضمن حدود الشكر ، ثم هو يجد نفسه مسوقاً أيضاً الى الصبر على هـــذا الانضباط ، أملا بمـــا استيقنته نفسه من المثوبة والأجر على ذلك .
وهذا هو الابتلاء .

★ ★ ★

لَاعِبْرة بعَرَضِ الدُّنيَا

وعرض الدنيا يطلق على كل ما فيها من مظاهر الغنى والترف
والزخرف والفنون والمفاخر الدنيوية المختلفة .

إن هذه المظاهر لا عبرة بها ! .. فقد يمنحها الله تعالى
عباده الصالحين وأعداءه الجاحدين . وإنما العبرة بتلك الحالة
التي اذا ارتقى اليها العبد ، جعل من كل ما تطوله يداه
من الدنيا وأسبابها سلماً لبلوغ مرضاة الله عز وجل .

والعبد الذي وصل الى هذه الحال سعيد اون رأيته
يعاني - فيما تظن - ألواناً من المصائب والمآسي ، وهو
قوي وان رأيته - في وهمك - ضعيفاً لا يملك ما يخيف
منه أحداً او يدفع عنه عدواً ، وهو غني وإن تبدى لك
في ظاهر حاله انه فقير مهين .

بيد مثل هؤلاء الناس ، قوض الله ملك كسرى وهرقل ! ..

وتحت حمى هؤلاء الناس اقام الله دولة لم يسمع التاريخ مثلها في القوة ولا في الاتساع .

ومن هيبة هؤلاء الناس كانت ترتعـــد افئدة أولي البأس والقوة في العالم .

ومع ذلك كله ، فقد كان امير هؤلاء الناس يفضل أن لا يستبدل برقعته البالية غيرها ، وكان احد الجنود في جيشه يأبى ان يقابل قائد الجيش الفارسي الا بثوبه الممزق فوق فرس عارية ! ..[1]

وعندما جاء من يكلم أمير المؤمنين راجياً ان يحسن من مظهره الشكلي امام قادة الروم ، اصطكت اسنانه منه غضباً ، وقال له :

« أوه لو غيرك قالها يا أبا عبيد ، إذاً لجعلته نكالاً

(١) هو ربعي بن عامر ، عندما قابل رستم قائـــد الجيش الفارسي في معركة القادسية .

للمسلمين . إن الله أعزنا بالاسلام فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله » .

وظلت مكة التي انطلق منها الفتح الاسلامي الى القصور المنيفة في بابل ، وادياً أجرد غير ذي زرع وفير ولا بناء جميل .

وظل النبي الذي تفرعت من شرعته حضارة باسقة امتدت فوق رقعة العالم المعروف إذ ذاك ، أمياً لا يقرأ ولا يكتب وسط أمة أمية لا يعلم أكثرها قراءة ولا كتابة .

وامتد الأمر ، على ذلك ، حيناً من الزمن . تساق اليهم الدنيا ، فيخضعونها لحكم الله ومنهج دينه وسلطان شرعته ، دون أن تعلق منهم بنفس او تسيطر منهم على فؤاد .

حتى اذا خلف من بعدهم خلف تسلل حب الدنيا الى قلوبهم ، وانطلقوا يتنافسون فيها ، ويتباهون بزخرفها ، ويضعونها من حياتهم في موضع القيادة والتوجيه - تقلصت

القوة من حياتهم ، واختفت عنهم الرهبة التي كانت تخيف الناس منهم ، وتفرق أمرهم بعد تآلف واتحاد ! ..

طوي ملك الاندلس وطرد عنها من كانوا يحكمونها ويقودون امرها ، دون أن تغني عنهم قصورهم الباسقة ، ولا زخارفهـــا الرائعة ، ولا اموالهم الوفيرة ، ولا حضارتهم الرفيعة .

وتفرق أمر الدولة العباسية ، واستحال الى دويلات متخاصمة يأكل بعضها بعضاً ، دون أن يغني عنها الملك الواسع العظيم ولا المال الفائض الوفير ولا كثرة الجند ولا تقدم العلوم والفنون ! .

فما معنى ذلك كله ?

معناه أن الاسلام (بجوهره المجرد) هو ينبوع القوة ، وهو اساس الغنى ، وهو مصدر الحضارة والعلم .

ومعناه ان لا عبرة بالقوة او الغنى او الحضارة إذ يتجرد ذلك كله عن أساس الدين السليم . فقد تحطم ذلك كله ذات يوم تحت سنابك خيول المسلمين ، لا لشيء إلا لأنها كانت خيول المسلمين .

وإذا كان هذا الكلام جلياً واضحاً ، فليس لأحد أن يستشكل ويقول :

فيم تتقلب اليوم أمم الكفر والبغي في نعيم المال الوفير ، والقوة العاتية ، والعلوم الخارقة ، على حين لا يملك المسلمون في مقابل ذلك إلا الفقر الشديد ، والضعف العجيب ، والجهل بكل شيء .

نقول : ما ينبغي أن يورد هذا السؤال ، للسببين التاليين :

السبب الاول : أن نعيم الدنيا بأصنافه ليس مقياساً - كما قلنا - في شريعة الله وحكمه ، لسعادة الامم ولا لرضى الله عنها ، ولا لمدى قوتها وسلطانها في الارض ، وإن كانت هذه الامم اليوم - لسبب آخر - في منتهى القوة والباس.

لقد قال الله تعالى لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام : « لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » آل عمران : ١٩٧

وقال : « لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لانفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » آل عمران : ١٧٨

وقال : « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم في الخيرات ؟ بل لا يشعرون » المؤمنون :٥٥،٥٦

وقال : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » البقرة : ٢١٢

وقال عن الكافرين : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم إن كيدي متين » الاعراف : ١٨٢

وقال منبهاً الى حقارة الدنيا وهوانها على الله عز وجل : « ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون » الزخرف : ٣٣

ومر رسول الله ﷺ في السوق بجدي ميت ، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب ان يكون هذا له بدرهم ؟ فقالوا ما نحب انه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ فقال : والله للدنيا اهون على الله من هذا عليكم [١] .

---

(١) رواه مسلم.

ولو كان نعيم الدنيا هو السبيل الى قوة الدولة ووحدة الامة وحمايتها من اطماع المعتدين ، لنال المسلمون بقيادة نبيهم وخلفائهم الراشدين أعظم قسط من هذا النعيم ، ولعاشوا يتقلبون في رفاهية العيش وسعة الرزق .

ولكنهم كانوا على العكس من ذلك تماماً . لقد كانت أمم الفرس والروم على ما تعلم من النعيم والبذخ ، وكان يمر على رسول الله ﷺ ثلاثة أهلة لا يوقد في بيته نار لطعام . ولقد توفي عليه الصلاة والسلام وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين [1]

ولقد كانت تتهاوى حصون الاعـــداء امام فتوحات المسلمـــين وهم في شظف من العيش وشدة من الفقر ، وأعداؤهم يخوضون في ألوان الرفاهية والنعيم .

روى الامام مسلم بسنده عن سعد بن ابي وقاص انه قال : والله إني لاول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله ، ولقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ، ما لنا من طعام نأكله إلا

---

(١) رواه الشيخان .

ورق الحبلة وهذا السَّمر - نوع من الشجر - حتى ان أحدنا ليضع كما تضع الشاة ! ..

وروى مسلم ايضاً عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه ، أنه قال في خطبة له : لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر ، حتى تقرحت اشداقنا ، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك ، فاتزرت بنصفها ، واتزر سعد بنصفها. فما اصبح اليوم منا احد إلا اصبح أميراً على مصر من الامصار . وإني أعوذ بالله ان اكون في نفسي عظيما وعند الله صغيراً ، وانها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت ، حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً . فستخبُرون وتجربون الأمراء بعدنا .

ويقول رسول الله ﷺ : « أبشروا وأملوا بما يسركم . فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم ان تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم »[1]

(١) متفق عليه .

وإذاً، فلم يكن فقر المسلمين وتخلفهم وسوء حالتهم الدنيوية في يوم من الايام ، مانعـــاً لهم عن بلوغ اقصى درجات القوة والنصر ، وبالعكس ايضاً لم تكن وفرة الغنى في ايديهم ، وتهافت أسباب الراحة والمدنية والنعيم عليهم سبباً من اسباب ذلك التوفيق . بل كان المال بما يستتبعه من الرخاء - ولا يزال - مصدر ابتلاء وفتنة ، صمد له المسلمون حيناً من الزمن ، ثم ما لبثوا ان انزلقت اقدامهم ووقعوا صرعى في شراكه الخطير ، وحاق بهم ما حذر منه رسول الله ﷺ .

وهذا الرخاء نفسه بمظاهره المختلفة لم يستطع ان يكون حصناً يقي الفرس او الروم وأمثالهما من سطوة المسلمين وبأسهم . بل انتثر ذلك كله تحت اقدام المسلمين وتحققت « معجزة » الفتـــح الاسلامي ، على حد تعبير المؤرخين الغربيين [1] .

---

(١) يطلق الغربيون على الفتح الاسلامي اسم « المعجزة » لانهم لا يفهمون هذه المقاييس والقوانين الالهية التي تم النصر بموجبها -

وهكذا فقد اتضح لك ان مظاهر الرخاء الدنيوي ـ بكل ما تتسع له هذه الكلمة من مدنية وغنى وفنون وحتى علوم دنيوية مختلفة ـ أمر لا شأن له بما وعد الله المسلمين به من توفيق وعزة ونصر ، ولا علاقة له بما لهم من مكانة عنده او محبة من الله لهم .

السبب الثاني : أن المسلمين اليوم ليسوا هم المسلمين الذين كانوا بالامس ، عندما آتاهم الله « معجزة » الفتح ، وليسوا هم الذين وعدهم الله تعالى بالنصر والتأييد في مثل قوله عز وجل : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ..) النور : ٥٥ . وإنما هم اليوم نموذج آخر عجيب !.. يصبغون أنفسهم من الاسلام ببعض

ـ للمسلمين . فظلت المسألة في أذهانهم مستعصية على التعليل والتحليل لذلك سموها : معجزة .

أما نحن ، فنعلم أن المسألة مرتبطة بقانون ونظـــام سائدين مع اختلاف العصور والامكنة ولكن دستورها الاول إنما هو الايمان بالله عز وجل والتصديق بكتابه وسنة رسوله .

ألفاظه وشعاراته ضمن شروط معينة ، ثم لا يرضون لأنفسهم شيئاً من منهجه وشرعته وأحكامه ، يتبرمون بكل قيمه ونظمه وحدوده ، لمجرد انه قديم لم يولد البارحة في جملة هذا الذي أولدته حضارة الغرب ، ويتعشقون بدلا عنه جميع ما يجدّ بين هؤلاء الاعداء ، الذين يتساءل القارىء عن سبب تفوقهم ، لمجرد انه شيء حديث لمسته يد الغرب المباركة ! .. قد شاعت فيهم صنوف المنكرات حتى غدت هي المعروف المحبب اليهم ، واختفى من بينهم المعروف حتى أصبح هو المنكر المستهجن في نظرهم !..

فأي حق لهؤلاء عند الله تعالى أن يطالبوه بالنصر ، وأن يمنوا عليه بإسلام لم يمسكوا منه إلا بالقشور او الدعاوي الكاذبة ، بالاضافة الى ما قد يكيدون لمبادئه وأحكامه القدسية ؟!..

ولكنك قد تسأل : فهذا سبب تخلي الله عز وجل عن المسلمين ، ولكن ما هو سبب تأييد الله تعالى لأعدائهم في كل المجالات ، وهم شر من هؤلاء المسلمين على كل حال ؟

والجواب : أن سنة الله تعالى اقتضت ان تظل هذه
لدنيا تسير بأهلها في تطورها العمراني والمعاشي ، حتى يأتي
رعد الله تعالى وتحين الساعة المحددة لزوالها وانمحاقها .

وإنما شأن المؤمنين بالله القائمين على حدوده وأحكامه مع
قية الأمم الجاحدة بالله الباغية على هذه الحدود والأحكام ،
النسبة لعمارة الكون وقيادته ، مثل كفتي ميزان . إن
رجحت إحداهما لا بد أن تطيش الأخرى .

فإذا كان المؤمنون بالله صادقين في إيمانهم به ، أمناء على
نهاجه وشرعه في الحياة ، جعل الله تعالى قيادة الحيـــاة
وعمارتها اليهم ، وأخرج لهم أسباب العزة والتأييد من حيث
ا يحتسبون . وغدا الآخرون من ورائهم وتحت سلطانهم .

وإذا انقلب المؤمنون ، فضيعوا شرعة الله وحكمه ،
ولم تخلص أفئدتهم لدعوى ألسنتهم ، وفاض فيهم المنكر
حتى لم يبق فيهم من يقف في وجهه ، وغاب من بينهم
المعروف حتى عاد غريباً يتقزز منه ـ جعل الله تعالى قيادة

الحياة وعمارتها الى الامم الاخرى ، وسلطها عليهم بالقه
والتمزيق والاذلال .

وهكذا ، فإن الدنيا لا يمكن أن تقف عن حركته
وتطورها من أجل عيون الذين شاءوا أن ينكصوا على أعقابه
ويتخلوا عن مسؤولياتهم ، بل تظل مستمرة في نموهـ
وحركتها المعاشة كما اقتضت سنة الله . ولكن قيادته
تتحول من ايديهم الى ايدي الآخرين .

تأمل هذه السنة الإلهية كيف تبدو جلية في قوله تعالى
(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون
الانعام : ١٢٩

وفي قوله عز وجل ، وهو يشرح هذه السنة نفسها لبن
اسرائيل ، ويحذرهم من الوقوع في مغبتها : (وقضينا الى بن
إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علو
كبيراً ، فإذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أول
بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا) الى أ
قال لهم : (عسى ربكم ان يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلن
جهنم للكافرين حصيراً) الإسراء : ٤ و ٥ و ٦

وتأمل هذا المبدأ الإلهي نفسه في قوله عليه الصلاة والسلام « اذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا الى دينكم » والذل - كما تعلم - لا يكون إلا بتسلط من يمارس القهر والإذلال .

وتعال فانظر الى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص عند مضيه الى معركة القادسية ، وهو يشرح له هذا الامر الخطير ، ويهيب به أن يبعد جيشه عن الانحرافات والمنزلقات التي تجعله عرضة للوقوع تحت قبضة الظالمين . لقد كان فيما قال له :

(يا سعد ابن أم سعد : لا يغرنك أن يقال عنك خال رسول الله . فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين احد نسب إلا بطاعته .. آمرك ومن معك ان تكونوا أشد احتراماً منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن

لنا بهم قوة ، لان عددنا ليس كعددهم ، وعدتنا ليست كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإن لا ننصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا .. ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمعاصي الله كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ..) [1]

ولقد عاش مؤسس الدولة العثمانية الغازي عثمان بن أرطغرل في خضم تجارب هذه الحقيقة ، ورأى بعينه كيف تتحكم هذه السنة الالهية في مجرى التاريخ وصراع الامم مع بعضها ، حتى اذا حانت وفاته أقبل الى ابنه يعتصر

---

(١) ألا ليت الذين يتقنون الهتاف والتغني باسم القادسية اليوم ، يتقنون فهم هذه « الاستراتيجية » التي كانت سر انتصار المسلمين فيها . وليت أنهم يصدقون مع أنفسهم مرة واحدة فقط ، فلا يتغنون بامجاد القادسية ، ثم يحاربون القيم والمبادىء التي كانت الدعامة الاولى والاخيرة لخلود اسم القادسية في تاريخ العرب والمسلمين .

له من تجاربه مع هذه الحقيقة وصية رائعـــة نادرة جاء فيها قوله :

(خذ مني هذه العبرة ، لقد حضرت الى هذه البلاد وأنا كنملة في الضعف ، فأعطاني الله هذه النعم الجليلة !.. فالزم مسلكي ، واحذ حذوي ، واعمل على تعزيز هذا الدين المحمدي وتوقـــير أهله . فذلك هو واجب الملوك في الارض .) (١)

---

(١) دعني أثبت لك نص هذه الوصية كما وردت في كتاب « أبو الفتح السلطان محمد الثاني » تأليف علي همت وتعريب محمد احسان عبد العزيز . فإنها ستنبهك الى كثير من التدبر وتفسر لك معاني كثير من الاحداث وتزيدك إيمانا بعدالة العلي الاعلى القائل في محكم كتابه (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وهذا هو نصها :

« قـــدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبة عليه ، لا تستخدم الاشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش ، وجانب البدع المضرة وباعد الذين يحرضونك عليها وعلى الظلم . وسع

. . . .

رقعة البلاد بالجهاد ، واحرس أموال بيت المال من أن تبدد ، واعمل على إنماء ثروة الدولة . واعطف على رجال الدولة الذين وقفوا حياتهم على خدمتها بصدق واخلاص ، وابسط حمايتك على اولادهم وذراريهم واضمن للمعوزين قوتهم ، لا تمدّ يدك الى مال احد من رعيتك وابذل عطفك وإكرامك للمستحقين خصوصاً . اعمل على حسن استخدام طوائف الجند وتوفير الراحة لهم .

وبما ان العلماء والادباء بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة ، فاعطف عليهم وشجعهم . وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه وأغره بالمال والاكرام حتى يقيم في بلدك .

حذار حذار ، لا يغرنك المال والجند ! .. ولا تبعد أهل الشريعة عن بابك ، ولا تمل الى عمل يخالف أحكام الشريعة فان الدين غايتنا والهداية منهجنا خذ مني هذه العبرة : حضرت هذه البلاد كنملة ضعيفة ، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة .

ومع ذلك ، فينبغي ان تعلم بان هذا الواقع لا يسمى انتصاراً او تفوقاً للكافرين على المسلمين ، وإنمــا هو في الحقيقة تسليط او « تولية » على حد تعبير البيان الالهي. وفرق كبير بين الانتصار والتسليط.

إن الأمم التي تعادي شرعة الله وحكمه ، لا يمكن ان يكرمها الله تعالى بنصر او بفوز حقيقي في اي عهد من التاريخ او في أي بقعة من العالم..

قد يطلعها الله تعالى على بعض خفايا الكون وعلومه ، ولكنها بمقدار ذلك تغوص في مزيد من الجهالة بأجلى

فالزم مسلكي ، واحذ حذوي ، واعمل على تعزيز هذا الدين المحمدي وتوقير أهله مع سائر رعيتك المطيعة. ولا تصرف أموال الدولة أكثر من اللزوم ، ولا تضن على أخلافك بنصائحك ، وارحم رعيتك من الظلم.

وإذا متُّ ، فادفني تحت تلك القبة الفضية في « بروسه » وإذا كلفك أحد بشيء لم يأمر به الله فلا تقبله. واسأل من يعلم إذا كنت لا تعلم علم الدين ».

الحقائق المتعلقة بمصيرها . وما أصدق بيان الفاطر الحكيم في ذلك إذ يقول عنهم : (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون) الروم : ٧

وقد يملكها الله تعالى الى حين مقاليد الحكم ومقدرات الكون ويخضع لها الكثير من نواميس الطبيعة . ولكن ذلك لا يدوم لها إلا ريثما تسكر به عن ذاتها وتغفل عن الهاوية التي تسير على حافتها . وما اروع بيان رب السموات والارض في ذلك إذ يقول : (ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) الأنعام : ٤٢ و ٤٣

أجل .. أن غاية في الجهل أن تسمي شيئاً من هذه المظاهر نصراً ، او فوزاً ، او تفوقاً حقيقياً . ولئن لاح ان الأمر كذلك ، فان الجهل بحقائق الأشياء لا يمكن أن يغيرها .

فالذي يخترق الى حتفه جنة فيحاء وارفة الظلال ، سائر الى حتفه لا محالة ، سواء كان منصرفاً بشعوره الى فوح الزهر والرياحين ، او متحسساً مصيره وسوء عقباه .

وليس هذا الكلام تسلية او أنشودة تنويم يراد بها ارضاء المسلمين بواقعهم ، عن طريق تهوين شأن أعدائهم . بل هو على العكس من ذلك : تحليل للواقع الحقيقي الذي يعيش فيه المسلمون ، وعرض دقيق للمشكلة وحلولها التي لا بديل عنها . وسواء اعتبرنا سيطرة العالم الغربي عليهم سمواً وانتصاراً ، او اعتبرناه إمهالا من الله واستدراجاً ، فإن مما لا شك فيه أنهم متسلطون عليهم بالقهر والاذلال ، وأن المسلمين يعيشون أذلاء تحت قبضتهم ، او داخل مناطق نفوذهم ، أو ضمن حكم التبعية المطلقة لشتى مناهجهم وسلوكهم . وليس ذلك قضاء نازلا بهم بدون تسبب منهم ولا اختيار ، بل هو من ثمرات كسبهم وما جنته أيديهم . وما كان الله ليظلم أحداً من الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

وسبيل الانفلات من هـــذا الذل واضح معلوم لمن أراد ـ حقاً ـ الانفلات منه والسير في طريق العزة والنصر .
واي انصراف الى اصطناع سبل أخرى للتحرر من هذا الذل ليس إلا تعللا بأمنيات خادعـــة لا تكاد تشبع أخيلة الصغار .

* * *

علىٰ أيِّ أسَاسٍ يتنوَّعُ الابتِلَاء ؟

انتهينا فيما أوضحناه آنفاً ، الى ان معظم مظاهر هذه الحياة الدنيا ، يدخل فيما يسمى بالفتنة والابتلاء ، على ما تتنوع اليه من الخير والشر ، بما لكل ذلك من فروع وأقسام . وقد نص كتاب الله تعالى على ذلك في بيان قاطع بقوله : (ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا ترجعون) .

ولكن على اي اساس تتفرق هذه الفتن بين شتى فئات الناس وأفرادهم ، حتى يكون نصيب فلان منها المال والجاه ، ونصيب الآخر الفقر والخمول ، ونصيب الثالث المرض العضال ؟ .

إن التسليم بأن كل ذلك يدخل تحت قاسم مشترك هو الفتنة والابتلاء ، لا يعني انهما سواء في آثارهما على النفس ،

بل الأمر يختلف في ذلك اختلافاً بيناً ، ولذلك كان لا بد (للاطمئنان الى عدالة توزيع هذه الابتلاءات بين الناس) من معرفة القانون الذي تتوزع عليهم بموجبه .

ونقول في الجواب : أما تنوع الفتنة بحد ذاتها ، فأمر ضروري لتحقق جوهر ما يسمى فتنة وابتلاء . فإن فتنة الفقر لا وجود لها إلا بجانب وجود الغنى ، وفتنة المال وسياسة إنفاقه ، لا تتم إلا مع وجود الفقر والحاجة الى جانبه ، ولولا المرض وآلامه لما تجلت نعمة الصحة والعافية ، ولولا ما يعلمه الناس من لذة العافية وسلامة الأجسام لما اشتد خوفهم على أنفسهم من الاسقام والآلام

وهكذا ، فإن مظاهر هذه الحياة الدنيا ، لا يكتسب كل منها مقومات وجوده إلا بالنسبة الى غـــيره . ولو اختفت منها ألوانها المتعددة وتوحدت مظاهرها المتعارضة ، لما فقدت منها سمة الابتلاء والافتتان فقط ، بل لفقد منها أيضاً سر التعلق بها والركون اليها ، ولانقلبت الى عنصر سآمة وضجر .

وإذ كانت الحياة الدنيا - في حكم الله وارادته - دار افتتان وابتلاء ، فقد اقامها ، الفاطر الحكيم جل جلاله ، على هذا التنوع والنماذج بين شتى خصائصها ومستلزماتها ، وشد وجود كل منها بوجود الآخر . فكانت بذلك تربة صالحة لممارسة الوظيفة التي الزم عباده بها ، ألا وهي ممارسة العبودية له في شتى شؤونهم وتصرفاتهم الدنيوية .

وأما كيفية التوزيع ، أي ما قد يصيب كلًا منهم من أنواع هذه المحن والابتلاءات ، مما قد لا يصيب الآخر ، فتقوم على حكمة باهرة تتصل بالمعنى التربوي الذي يأخذ به الله تعالى عباده . فإن بلاء الفقر قد يكون العلاج المفيد بالنسبة لحال بعض الناس مع الله تعالى ، ويكون الداء الوبيل بالنسبة لبعض آخرين ، وقد يكون استمرار الصحة عنصر بغي وشر بالنسبة لجماعات من الناس ، على حين يكون هذا الاستمرار نفسه وسيلة خير واستقامة بالنظر الى آخرين .

وعندما نقول : الخير والفائدة والسعادة ، لا نقصد

بشيء من ذلك ما يتفق مع أهواء الناس وتصوراتهم لمع
الخير والفائدة والسعادة ، وإنما نقصد به الخير الذي علم ا
تعالى أنه خير ، بقطع النظر عن موافقته لأهواء الناس ا
عدم موافقته إياها . والله تعالى يقول : (وعسى ان تكره
شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لك
والله يعلم وأنتم لا تعلمون) البقرة : ٢١٦ .

ويقول رسول الله ﷺ : (إن الله ليحمي عبده المؤم
من الدنيا وهو يحبه ، كما يحمي أحدكم مريضه)[١] .

ومعنى هذا الكلام ، أنه لا عبرة برضى العبد أو عد
رضاه ، فإن المربي يعلم من حال من يربيه ما لا يعلمه ه
من نفسه ، ولولا ذلك لما سمي المربي مربياً ، ومن أعظ
أسماء الله تعالى وصفاته : الرب ، أيِ المربي .

إن الطفل ، إذ يربو صغيراً في حجر أمه وأبيه ، ير
على كثير مما يكره من التصرفات والأعمال ويحرم م
كثير مما تتوق اليه نفسه من اللذائذ والطيبات . وربما

---

(١) رواه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه .

تطع ان تدخل الى نفسه اليقين بان ذلك كله من اجل
ره ومصلحته وعاقبة امره . فإن حدوده الفكرية لا تتسع
م ذلك وفهمه . ولكنه لا يكاد يتجاوز مرحلة الصبا ،
صحو عقله الى معاني الحياة التي تحيط به فيدرك طبيعتها
صائصها ، حتى ينقلب شاكراً لمن كان بالامس يتضايق
ويتبرم به .

وشأن الانسان في هذه الحياة مع ربه عز وجل أقل
كثير من شأن الطفل مع وليه ومربيه .

وإذا أدركت ان الأمر كذلك ، فلا تتهم ربك فيما
وس به عباده من ألوان الفتن والابتلاء . وسواء لاح لك
وجه الحكمة في بعض منها او خفي عنك ، فاعلم ان الله
الى حكيم : لا يضع الامر الذي يختاره الا في المكان
ذي لا يصلح فيه غيره ، مرب : لا يأخذ عبده بالشدة
لا لينبهه من غفلة مهلكة او يرده عن انحراف وقع فيه .

وكم رأينا أناساً عاشوا صدر حياتهم في غفلة عن الله ،
سكرتهم النعمة ، وأبطرتهم العافية ، وأطغاهم المـــال .

فابتلاهم الله تعالى بأمراض في جسومهم او إقـــلال في مالهم
فنبههم البلاء الذي هزهم وأعادهم شيئــاً فشيئاً الى حظيرة
العبودية للفاطر الحكيم جل جلاله ، ثم أبدلهم الله عز وجل
بالخير الذي فاتهم نعيم الانس بذاته ولذة الانابة الى هديه
تنظر الى احدهم وقد غمره شعور السعادة والرضى ول
الانابة الى الله عز وجل .

وكم رأينا من طغاة قد تمطوا بأنفسهم الى سدة الربوبية
اذ أوتوا من القوة وأسبابها ما أنساهم أنهم عبيد أذلاء
عز وجل ، فلمـــا جردوا من قوتهم واستنزلوا من أعا
سلطانهم ، وضمتهم - الى بضعة ايام - جدران سجون ،
أرض غربة ، تذكروا الحقيقة التي طالما ظلوا غافلين عنها
وارتدت أبصارهم الى انفسهم فعرفوها بعد طول جهالة
ثم اصطلحوا مع الله عز وجل على صعيد العبودية الراضي
والايمان المطلق بربوبيته وحكمه .

وكم من رجل عاش حياته ، لم يذق طعم الضراعة ع
باب الرحمن ، ولم تنبسط يداه اليه بسؤال صاعـــد م

اعماق ، ولم يستشعر شيئاً من نعيم الذل لقيوم السماوات
لارض ، إذ كانت النعمة تأتيه رغداً من كل مكان ، فلم
كن ثمة ما يقوده الى ذل المسألة وضراعة العبودية . فلما
تلاه الله تعالى بالمصيبة التي لم تنفعه فيها محبة صديق ولا
لاص طبيب ، ولم تنقذه منها أموال الدنيا ولا زعامات
عماء ولا بطش الاقوياء ـ تذكر مولاه الذي لا مولى
راه ، وضل من حوله من يدعوه إلا إياه ، فأسرع الى
ب الله يتمرغ في أعتابه ، يناديه من اعماق قلب كسير :
لقد عدت اليك يا رب بعد طول شرود وابتعاد ، لبست
لباب عبوديـــتي لك وقبعت في ذل انكساري اليك ،
صحوت الى عظيم فضلك وبالغ منتك ولطفك .

فلما أضاء الايمان سراج قلبه المظلم ، وبدأ يخفق بلذة
رب وحلاوة النجوى ، نسي سؤاله الذي جاء من أجله ،
حط برحله هناك ، لا يبتغي عن قربه الى الله بديلا ،
لا يبيع حلاوة شهوده القلبي بنعيم الدنيا كلها .

ولست أنسى ـ ما عشت ـ إنسانا عظيماً شطر الله حياته

الى قسمين ، كان في الشطر الاول منهما ذا نعمة وافر
وعافية تامة ، وكان في شطرها الثاني يعاني من مصيبة مرض
عضال في جسمه علق به ثم لم يفلته ، وقد ألصقه هـ
المرض بأعتاب الله عز وجل وأحيى قلبه بالمزيد من ل
مراقبته وحبه وشهوده ، فكان يقول لمن حوله : أشهد
أنني لا أريد العافية من هـذا المرض اذا كانت العاف
ستفقدني حلاوة قربي الى الله . وكنت اشعر انه يقو
من اعماق قلبه ، ويودعها جميع احساسات روحه .

وانما ينال العبد لذة هذا القرب من مولاه عز وج
بتوبة الله عليه ومحبته له ، وانمـا يتوب الله عليه بفض
انكساره والانضواء في ذل العبودية له . ولا يتم ه
الانكسار الا عندما يطوف بالانسان لون من ألوان الحرما
او يتهدده شبح مصيبة في ماله او جسده او أهله .

ولو شاء الله لخلق شعور العبودية والانكسار في قلب
كل انسان خلقاً ، دون وساطة كسب ولا سعي منه
ولكنك علمت مما ذكرناه آنفاً ان مشيئة الله تعلقت بوض

لانسان في موضع التكليف وان التكليف لا يكون الا
كسب والسعي في طريق من الكلفة والمشقة والعسر .

• • •

ولعلك تستعرض امر الناس ، فترى من احوالهم ما
. يجعلك تحسب ان لهذه السنة الإلهية شذوذاً فتشك في
ىدق ما قلناه ، كأن تجد عصاة مستغرقين في عصيانهم ،
م لا يدركهم مع ذلك صحو هذه الفتن والآلام ، او تجد
اساً في غاية التقوى والاستقامة ، والمصائب تظل لاحقة
م ، او تجد كفرة جاحدين قد مرقوا من دائرة الايمان
لها ، وهم في بحبوحة من الدنيا ورغد من العيش .
فاعلم ان هذه السنة الالهية ليس فيهـــا أي تخلف او
ذوذ ، ولكنك لا تستطيع ان تلمس تطبيقها على صعيد
مزئيات الوقائع والافراد ، فأنت لا تعلم من حال الناس
حقيقة سلوكهم الا ما يبدو لك من ظاهر امرهم ، أما
خفيات شؤونهم فمجهولة وغائبة عنك ، لا يعلمها الا الله .
فمن اين تعلم ان هذا الذي تراه عاصياً مستحقاً لبلاء
نبه من العصيان ، ليس بينه وبين الله تعالى حال من

الصلاح يكفر به عنه سوء تلك الاوزار ؟ . ومن اين ت
أن غيره ممن تحسبه اقوم حالا منه ، كذلك في واقع الا
عند الله ؟ .. ورب خاطر يخطر بسوء أدب في حق
تعالى وعظيم صفاته ، يكون عند الله عز وجل أعظم وأ
- كما يقول الامام الغزالي - من شرب الخمر وارتكاب الز
واقتراف سائر الموبقات . وذلك الخاطر مما لا تراه
تحس به ، وهذه المعاصي ظاهرة مكشوفة للعيان .

يقول الشيخ ابن عطاء الله السكندري ، في حك
العظيمة : « رب معصية أورثت ذلا وانكساراً خير م
طاعه أورثت عزاً واستكباراً »[1] فما أدراك بالمعصية ا

---

(١) ليس معنى هذا الكلام ان المعصية قد تكون في بعض الحالا
أفضل من الطاعة ، بل المعصية شر دائماً والطاعة خير دائماً . ولك
المقصود ان المعصية التي يتلوها من العاصي الندم والتذلل امام الله بس
حتى يورثه ذلك انكساراً في النفس ، ينمحي وزرها عن العاصي
لم يعد الى مثلها .وأن الطاعة التي يتلوها من الطائع تعاظم بها واستك
على الآخرين بسببها ينمحي عن صحيفة العبد ثوابها وجميع آثار
فينال ذلك العاصي بتذلله وانكساره ثواب التوبة ، وينال هذا الط
بمباهاته وتعاظمه وزر التكبر والعجب .

ورثت صاحبها الانكسار والذل ، والطاعة التي أورثت صاحبها الكبرياء والعز ؟! ..

على ان المعصية اذا استفحل امرها وازداد العاصي استهانة بها وعكوفاً عليها ، حتى اشتد غضب الله عليه بسببها (والله أعلم بالمعاصي والاحوال التي تكون سبباً في ذلك) ادخر الله عليها عقوبة آجلة يوم القيامة ، لا يكفرها جميع مصائب الدنيا . وعندئذ يزداد نعيم الدنيا اقبالا عليه والتفافاً به ، ويزداد عكوفاً عليها واستغراقاً في بحارها . لا يصحو منها ساعة إلى نفسه ومصيره .

وذلك هو الاستدراج الذي نص عليه البيان الإلهي في قوله عز وجل : (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم إن كيدي متين) وفي قوله : (ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع ان أزيد) المدثر : ١١

ولقد حذر الله تعالى المؤمنين الصالحين من ان يفتنوا بحال هؤلاء الناس فقال : (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل

الظالمون ، انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) ابراهيم ٤١ . ونبهنا رسول الله ﷺ الى هـــذه السنة الالهية في قوله : « اذا رأيتم الرجـل يعطيه الله ما يحب ، وهـو مقيم على معصيته ، فاعلموا ان ذلك استدراج » [١] وفي قوله في الحديث الآخر : « اذا اراد الله بعبـــد خيراً عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا » [٢] ويقول أيضاً عليه الصلاة والسلام : « من يرد الله به خيراً يصب منه » [٣] .

فلماذا لا تحملك معرفة هذه الحقيقة على شكر الله تعالى والتجمل بالصبر على بلائه ، اذا رأيته قد ابتلاك من حيث عافى غيرك . فربما كنت ممن آثرك الله برحمته فعجل لك من المكروه ما يكفر به عنك الاوزار ويشدك الى حمى الله تعالى وظل عبوديته ؟!...

---

(١) رواه احمد والطبراني والبيهقي في الشعب باسناد حسن .

(٢) أخرجه احمد والطبراني باسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعاً ومتصلاً .

(٣) رواه البخاري .

على أني أذكرك مرة أخرى بأن صدق هذه القاعدة
لا تستدعي القدرة منك على تطبيقها بالنسبة لمختلف أفراد
ناس . فأنت أعجز من أن تبلو دخائل الناس وتطلع على
دقائق أحوالهم مع الله عز وجل . وللشريعة ميزان يقاس
به ظاهر أحوال الناس ، ولكن بواطن الأمور لايطلع
عليها الا علام الغيوب ، وانما تكون تربية الله لعباده
حسب ما يعلمه من دقائق أحوالهم . لاحسب ماتراه من
ظاهر تصرفاتهم .

* * *

مَنْطِقُ العُبُودِيّة

كل هذا الذي ذكرناه ، يدخل تحت منطق البحث والنقاش القائمين على اساس النظر العقلي المجرد .

فأما اذا التفت الباحث الى ذاته ، وتعرف على هويته وأدرك أنه عبد مملوك لله عز وجل ، يتصرف به كما يريد – فان الاستشكال أو السؤال يصبح غير سليم ولا وارد في حقه . فان المالك من شأنه أن يتصرف في ملكه كما يشاء ، وحسب الحكمة التي يراها ويتخيرها ، وليس لأحد مهما كان ، أيّ امتياز في أن يتدخل في شأنه باعتراض أو اقتراح أو استشكال ، فضلاً عن أن يكون المتدخل هو المملوك نفسه .

حسب المسوغ حينئذ ، لما يفعله الله بعباده ، أنهم عبيده ، وأنه يحقق فيهم معنى عبوديتهم له ، ويحملهم

على الخضوع لذلك طوعاً أو كرهاً . وهذا المسوغ يعتبر بحد ذاته حكمة كافية للإجابه على هذا السؤال .

وإذا لاحظت هذا المعنى ، لم يعد لكلمة « العدالة » وميزانها ، مكان فى هذا البحث من حيث هو . فإن شيئاً من ميزان العدل او الظلم غير وارد فيما يفعله المالك بمملوكه الحقيقي .

إن الظلم هو تصرف الانسان بملك غيره بدون اذن منه . فكيف يتصور أن ينسب هذا الوصف الى الله عندما يتصرف بملكه الحقيقي الذي لا دخل لأي احد فيه ?!.

وانما يطلق « العدل » على المعنى الآخر الذي يقابل « الظلم » ، لأن كلًا منهما يقوم على اقصى طرف لموضوع واحد ، الا وهو التصرف في ملك الغير . وهذا الموضوع غير متصور في حق الله تعالى مطلقاً .

واذا نسب العدل الى الله تعالى ، فإنما هو على سبيل المشاكلة ، فقد كتب الله على نفسه ان يقيم لعباده ميزاناً يوم القيامة يكشف به عما قد اقترف كل منهم من سيآت

او قدّم من طاعات ، فيجزيه على كل ذلك ، ان خير
فخير وان شراً فشر . وهذا ما يفعله الحاكم في رعيته
والقاضي بين خصومه . واذ كان هذا الفعل منها معتمد
على ميزان العدالة في الحكم ، فقد اقيم الحساب والميزان
يوم القيامة على ميزان هذه الكلمة نفسها . وهو جل جلال
لو شاء لزج بجميع عباده الى قعر هاوية من النار او جمعه
في نعيم فضله وجناتـــه ، دون ان ينال فعله هذا من
ميزان العدالة منالا ما ، او يوصف بشيء من الظلم .

ومن ثم أجمع جماهير المسلمين على ان الله تعالى لا
يجب عليه شيء .

كما اجمعوا على ان صفة الحسن والقبـــح في الاشيا
اعتباري ، لم تنشأ الا بخلق الله تعالى وايجاده . اي فهو
الذي وسم بعض الأشياء بسمة الحسن فكانت مستحسنة من
الشرع ، ووسم بعضها بسمة القبـــح فكانت مكروهة
ومحظورة منه . ولو شاء لعرّاها عن هذه السمة فلم يكن
شيء منها مطلوباً ولا مكروهاً .

ونحن لا ننزه الله تعالى عن القبح الا لأنه هو الذي قضى بكونه قبيحاً . ولا نثبت له شيئاً من صفات الكمال الا لأنه هو الذي قضى بكونه ذا حسن وكمال .

وادراك هذه الحقيقة اساس لا بد منه في فهم كل من معنى عبودية الانسان لله ، وألوهية الله على جميع خلائقه .

فإذا علمت انك عبد مملوك لله عز وجل ، خلقك من العدم لانه اراد ذلك ، وسيردك الى العدم اذا شاء ذلك فأي حق لك في ان تتدخل فيما لست شريكا مع الله فيه ، فتسأله : لم أغنيت هذا وأفقرت ذاك ، وماذا جنى هذا حتى شوهته وأشقيته وماذا أفاد الآخر حتى أسعدته وعافيته ؟!.

نعم ، لك ان تتساءل ، وأنت خاضع تحت سلطان العبودية ، عن الحكمة !. وقد عرفت الحكمة بتفصيل لا مزيد عليه في الصفحات الماضية .

ولكن ليس لك اي حق في ان تتجـــاوز حدود عبوديتك التي لن تستطيع ان تتجاوزها مهما حاولت ، لتنتقد او تعترض ! .

إن كنت معترضاً ولا بدّ، فلتعترض على مالكية الله لك ولسائر عباده ، فهل أنت على استعداد لتفعل ذلك ؟

واذا كان امتلاك الله تعالى الدنيا بما فيها حقيقة واقعة فما انت والدخول فيما لا يعنيك من شأن مالك يتصرف في ملكه كما يشاء ؟!.

سألني رجل لقيني في احد المساجد : طفل واحد ليس لي سواه ، استلبه الله مني وانا أشد ما أكون حباً له فلماذا فعل بي ذلك ، وما أعلم اني عصيته في طاعة او قصرت معه في واجب ؟!.

قلت له : ربما لم تكن قد قصرت في شيء من واجبات الله عليك ، ولكن لا دخل لهذا بما تسأل عنه . فالطفل ليس ملكاً لك كما تظن ، بل كلاكما ملك لله عز وجل وقد شاء ان يستودعه عندك الى حين ثم يستلبه منك . وقد أخبرك بأنك عبد له وأن عليك ان تحقق هذه العبودية بالرضى عن كل ما يقضيه فيك . فإن لم تحقق عبوديتك له طوعاً ، تحققت فيك كرهاً . والفرق بين الحالتين أنك

تحرز في المرة الاولى مثوبة الله وفضله ، وتحرز في المرة الاخرى عقوبته وعذابه ، وأنت على كلا الحالين لم تتحرر عن شيء من سلطان العبودية له .

وقلت له : إنك اليوم تعترض وتشكو .. فهل تستطيع ان تثبت على هذه الحال ؟!.

هل تستطيـــع ان تظل كما انت اليوم - في نقدك واعتراضك - عندما ينتهي نصيبك من العمر في هذه الحياة الدنيا ، وتمتد ذاوياً على فراش الموت ، ويأتي الرسول الموكل بقبض روحك ، فتناقشه فيما جاء من أجله وتبعث معه الى الله بنقدك واعتراضك ؟.

إنك لتعلم أنك تكون في تلك اللحظات مستسلماً بكل كيانك لقرار الله وحكمه فيك ، وستغدو إذ ذاك كتلة من الذل والضعف ، تنطق بالانصياع لمالك الكون كله .

فلماذا لا تخضع اليوم منشرحاً راضياً لهذا الذي ستخضع له غداً ذليلاً مرغماً ؟!.

لماذا يتجاهل العبد أنـه عبد ، وهو يعلم ان التجاهل لا يغير شيئاً من واقع عبوديته له ؟..

★ ★ ★

ومع ذلك ، فقد قضى الله تعالى ـ منة منه وفضلاً ـ بأن يهبك الأجر العظيم على اعترافك بعوديتك له وانصياعك لأحكامـــه فيك . وأنت لو لم تعترف بذلك ولم تنصع لأوامره وأحكامه ، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ولا أفادك انعتاقاً ولا تحرراً .

يبتليك الله بالفتن ، ثم يمنحك الأجر على ذلك إن صبرت ويمتحنك بألوان النعيم ، ثم يكتب لك الأجر على ذلك أيضاً إن شكرت

وتطوف بك الشدائد ، ثم يسكب في قلبك برد النعيم والانشراح ، إن أنت أدركت هذه الحقيقة وآمنت بها

يقول في محكم كتابه : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه

راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » آل عمران : ١٥٥ .

فقد قضى ، إذاً ، في عباده بشريعة المحنة والابتلاء وذلك حق من حقوق مالكيته لهم .

وكتب على نفسه لهم الرحمة والأجر ، وتلك منة تفضّل بها عليهم .

وجعل ثمن هذا الأجر ، كلمة واحدة يقولونها منبعثة من قلوبهم ، ثم يجعلون منها عزاءهم وسلواهم : إنا لله ، وإنا اليه راجعون .

وتأمل في هذه الكلمة العلويه ، لتدرك عظيم ما استودعته من ينابيع الراحة واليقين .

تقول بملء قلبك : إنا لله ، فتذكر بذلك أنك عبد لله ، أي مجرد سلعة في بضاعة الرحمن ، سلعة ليس لها من أمر نفسها شيء !.. وسواء وضعت في أعلى الرتب أو دفنت تحت القذر ، أو حتى تسلل اليها الروح وانتابتها الحركة والشعور ، فهي على كل حال سلعة !.. أمرها بيد من يملكها .

وتقول بعد ذلك : وإنا اليـــه راجعون ، فتتذ
أن لك من بعد الموت رجعة الى الحياة ولقاء مع ا
عز وجل . وأن كل ما احتسبته صابراً عند الله تعالى
المصائب والآلام يرتد اليك مثوبة ونعيما وسعادة ،
انقطاع لها ولا زوال . فأنت من الدنيا وأحداثها لس
إلا في ساعة كدح وحرث ، ولست من الحياة الآخر
إلا في ساعة ربح وحصاد

ومن خلال تردادك لهذه الكلمة ويقينك بمضمونهـا
تتنزل عليك من الله تعالى الرحمة والرضوان .

وإذاً ، فإن منطق العبودية يقضي بالتسليم ، ولا ينس
مع أي اعتراض او نقاش . وعندما تدرك جيداً بأن
عبد ، تجد نفسك واقفاً في مقام الخضوع والتسليم .

ومَنطِق الحُبِّ

أما إذا أيقظت الفؤاد الى ذكر الله تعالى وعظيم
فاته المختلفة ثم أخذت تنبهه الى ذلك كلما أدركته الغفلة
دنيا وأهوائها ، ورحت تتأمل مختلف آلاء الله تعالى
يك - ومصائب الدنيا كلها لا تعدُّ شيئـــاً أمام نعمه
كثيرة المختلفة - واستمر بك هذا الحال ، حتى لم تعد
دنيا بما فيها أمام عينيك إلا صفحة صافية نقشت فوقهـا
فات الله جل جلاله : فالنعمة التي تمتد بها اليك كف
سان ليست إلا مظهراً لصفة المنعم الحقيقي . والكمال الذي
راه في تدبير أي صنع ، أو مظهر أي مخلوق ، ليس إلا
نعكاساً لصفة الكمال في مصدر الكمال الذاتي . والجمال الذي
اخذ بلبك ويروق لعينيك ليس إلا أثراً من آثار الجمال

في مبدع الجمال كله . والعلم الذي تعظم مكانته في صدر
ليس إلا هبة من لدن علام الغيوب ـ نقول : أما إ
أيقظت الفؤاد لهذه الحقائق الكبرى ، وعشت معهـ
بوجدانك حيناً من الزمن ، فإنك تقع تحت تأثير مح
عارمة لرب السموات والارض ، إذ تعلق بقلبك خيوط
هذه الصفات التي تتمثل فيها دواعي المحبة على اختلافها
ثم تشده وتنصرف بـه الى مصدر واحد هو مصدر هذ
الصفات كلهـا وهو الله جل جلاله ، فيتجمع بذلك شتات
الأهواء في هوى واحد لا ثاني له ، ويتحد المحبوب بعد أ
كان موزعاً في مظاهر وأسباب مختلفـــة . هنالك تخش
منتشياً بسكر هذا الحب ، وتناجي محبوبك الواحد الأح
من أعماق قلبك قائلًا :

كانت لنفسي أهواء مفرقـــة

فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده

وصرت مولى الورى مذ صرتَ مولائي

كت للناس دنيـــاهم ودينهم

شغلاً بذكرك يا ديني ودنيـــائي

وعندئذ يسقط ـ في شعورك ـ الفرق بين آلام المصائب
قد تعاني منها ، ولذائذ النعم التي تتمتع بها ، ما دام
منها مطبوعاً بطابع الحكم الإلهي وإرادته .

بل المحب من شأنه أن ينتشي تلذذاً بالخضوع لما يقضي
به به المحبوب ، إذ كان له في ذلك مجال التعبير عن
ى حبه له وتعلقه به .

وبهذا الشعور عاش الأنبياء والصديقون ، وبهذا الشعور
جتاز الربانيون بمعبر هذه الحياة الدنيـــا ، وانغمسوا في
صائبها وأوجاعها دون أن يشعروا بشيء منهـــا ، فضلاً
ن أن يتبرموا بها ويضجروا منهـــا أو يعترضوا على
ه فيما قضى عليهم بها .

وما اشتدت المحنـــة بواحد من هؤلاء المحبين إلا
أثارت في قلبه مزيداً من كوامن الحب والشوق لمن
زل به تلك المحنة .

لقد اشتد بُرحاء الموت برسول الله ﷺ وأطبق عليه ؛
عذابه من كل جانب ، وهو غارق في مناجـــاة مولاه
قائلًا : اللهم بالرفيق الأعلى .. اللهم بالرفيق الأعلى ..

ولما نزل الموت بمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، جعل
النزع يتغشاه بشدة ، فكان كلما أفاق من غمرات الموت
فتـــح عينه ثم قال : أي رب !. أخنقني خنقاتك ؛
فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك ..

وابتلي عمران بن حصين رضي الله عنه بمرض عضال
أثبته على سرير من الجريد ما يقارب ثلاثين عاماً ، حتى
ذاب لحمه ووهن عظمه . وزاره مرة أخوه فبكي ، فقال :
ما يبكيك ؟ قال : هذه الحال العظيمة التي أنت فيها !..
قال : لا تبك ، فإن أحبه الى الله تعالى أحبه إلى .

★ ★ ★

فإذا أكرمك الله تعالى بذرة من عنايته ، وأورثك
شيئاً من نعيم هـــذا الحب ، انمحقت من نفسك مشاعر
الهموم ونوازع الشهوات ، وعدا القلب مستغرقاً بلذة عارمة

يقوى على وصفها إلا من أكرمه الله بمذاقها . بل تصبح
لاذ الدنيا كلها أدنى رتبة من لذة هذا الحب الإلهي إذ
ستولي بسلطانه على القلب .

وفي غمار الشعور بهذه المحبة ، قد ينجرف المحب في
عض الشطحات الخارجة عن سلطان إرادته ، كأن يعلن
هده في الجنة ونعيمها ، أولا يهتم بالنار وعذابه ، إذ كان
لبه منصرفاً عن لذائذ الدنيا والآخرة ومخاوفها الى التعلق
ات الله تعالى والاستغراق في مشاعر الشوق الى لقائه ،
و لا يريد إلا نعيم القرب من مولاه ولذة النظر الى
جهه الكريم .

وربما حملته هذه الحال على التعرض لابتلاءات الله تعالى
مصائبه ، ليعلن من خلال تجشمها ومعاناتها عن مدى حبه
تعالى وعن شدة رضاه بكل ما يأتيه من طرف المحبوب .

ولكن كمال الأدب مع الله تعالى ينافي كل ذلك .
إنما عذر الذين وقعوا في هذه الحال أنهم غُلبوا على أمرهم ،
أن مشاعر قلوبهم تغلبت على رقابة أفكارهم .

ولقد كان رسول الله ﷺ أشد الناس حباً لله عز وجل
ومع ذلك فقد كان لا يفتأ يسأل الله العفو والعافية من
المصائب كلها . فإذا نزلت المصيبة رضي بها وصبر عليها
واحتسبها عند الله عز وجل . وكان يسأل الله في دعائه
الجنة ويستعيذ به من النار .

وقد رووا أن أحدهم أنشد يقول ، في غمرة مشاعره
الوجدانية التي سيطرت على قلبه :

عذب بما شئت غير البعد عنك تجد

أوفى محب بمـا يرضيك مبتهج

فابتلاه الله تعالى بحصر البول ، وناله من ذلك عذاب
شديد برح به ، فكان يخرج الى الأطفال في الشارع
يعطيهم الدراهم ويقول لهم : أدعو الله لعمكم الكذاب!

وعلى كل ، فإن هذا الحب ، إذا ألجم بلجام الشريعة
كان ذروة المقامات العالية التي يرقى اليها الصالحون والربانيون
وهو أعظم دواء لكل ما قـد يتعرض له الانسان في
دنياه من الفتن والمحن على اختلافها .

أما إذا أقفر القلب منه فلا بد أن تتسلل اليه فوائص
شهوات والأهواء وزخارف الدنيا وملهياتها . إذ القلب
يمكن أن يعيش في فراغ . بل لا بد أن يتعلق به
شيء ما ، كالمرآة لا بد أن تثبت فيها صورة ما . فإذا
ينبض بحب فاطر السماوات والأرض ، كان لا بد أن
نبض بحب ما دونه بما قد يروق له من مظاهر الكون .

وعندئذ يعظم عليه وقـــع المصائب والابتلاءات على
ختلافها ، لما فيها من معاكسة القلب وأهوائه ، وكلما
عظم تعلق القلب بتلك الأهواء ، عظم وقع المصائب على
لنفس وضعفت فيها طاقة التحمل والصبر .

من أجل ذلك أجمع علماء التوحيد على أن محبة الله
ورسوله ركن أساسي في بنية الاسلام والإيمان .

* * *

وربما ناقشك في هذا الحق ، من يدعي بان محبة الله
تعالى ليست أكثر من طاعته وبان المحبة القلبية المعروفة
لا يمكن ان تكون من العبد لربه ، لان القلب لا يتعلق
إلا بالمحسوسات والله منزه عنها .

فاعلم انه ما من عاقل إلا ويعلم بان الحب سائق الى الطاعة ، وليس هو الطاعة نفسها . إذ الطاعات تحتاج الى ما يحمل الانسان على فعلها ، ولا يحمله على فعلها إلا إيمان مشفوع بحب . وبمقدار شدة الحب وغلبته تزداد الطاعة أو تقل . ولولا هذه الحقيقة لما تفاوت الصحابة في الطاعات وتحمل المشقات مع ما هو معروف من تساويهم في أصل الايمان .

وليس صحيحاً أن القلب لا يتعلق الا بالمحسوسات . فما اكثر ما ينصرف القلب الى محبة معان مجردة لا تتجسد في شكل مرئي .ولا محسوس ، كالعـــلم والكرم والشجاعة والرحمة والذكاء .. بل ان للقلب أحوالاً غريبة وعجيبة في هذا المجال ، لا يعلم كنهها وأسرارها الا فاطرها العزيز الحكيم ، فاي مخلوق هذا الذي يزعم أنه قادر على ضبط نوازعه وحدود أشواقه .

ومع ذلك كله ، فإن واقع حال الصالحين والربانيين الذين امتلأت قلوبهم بحب الله عز وجل أعظم وأبين دليل على بطلان هذه الدعوى وشدة مكابرتها للواقع الملموس .

إذا كانت محبة الله ليست أكثر من طاعته ، فما معنى
قول معاذ بن جبل وهو يكابد غمرات الموت : فوعزتك
إنك لتعلم أن قلبي يحبك ؟.. وهل كان شيء آخر غير
قلبه ينبض إذ ذاك بهذه الكلمات ؟..

وما معنى قول الله عز وجل وهو يصف النخبة من
عباده : « يحبهم ويحبونه » ؟

والعجب من هؤلاء الناس أنهم ينكرون المجاز في القرآن ،
ويمنعون التأويل في مثل قوله تعالى : « الرحمن على العرش
استوى » ، وقوله « يد الله فوق أيديهم » ، وان اقتضاهم ذلك
تجسيد الله تعالى وجعله شبيهاً ببعض مخلوقاته ، ثم يبادرون
الى تأويل قوله « ويحبونه » بالطاعة واتباع الأوامر ، دون
أن يكون ثمة اي داع الى تكلف المجاز والتأويل . فأنت
لا تدري أي قاعدة هذه التي يعتمدون عليها فيما تقضيهم من
تأويل مرة وإمساك عن التأويل أخرى !!..

ولكن الذي يفقه الحب الإلهي ، هو من قد ذاق

فؤاده طعمه !.. أما ذاك الذي كان الدين في كيان
مجرد أفكار تظل حبيسة في عقله ليظل قلبه وقفاً على
مظاهر الدنيا وأهوائها المختلفة ترتع فيه كما تشاء ، فأمر
طبيعي جداً أن لا يفقه شيئاً عن حقيقة المحبة الإلهية
وأثرها في القلب .

★ ★ ★

خلاصة القول

ويتلخص كل ما ذكرناه في أمرين اثنين :

أولهما : أن تتعرف على ذاتك وحقيقتها قبل كل شيء ، فتدرك أنك عبد مملوك لله عز وجل . فإن معرفة الإنسان لذاته هي المحور الذي تدور عليه معرفته لكل ما قد يراه من حوله . وبدون وجود هذا المحور على وضعه القويم ، تظل سائر أنواع المعرفـــة الأخرى مهزوزة ومحجوبة عن العقل وراء كثير من الشكوك والأوهام .

وبمجرد أن تتم معرفتك لذاتك على نحو دقيق سليم ، تتهاوى جميع مشكلاتك الفكرية المختلفة عن الكون والانسان والحياة ، وتتجلى لك من ورائها سائر الحقائق التي شرحناها بتفصيل في الصفحات السابقة وتكسبك تلك المعرفة عندئذ حياة طيبة تمتد على جميع أيام عمرك . وهي

العهد الذي قطعه الله تعالى على نفسه لعباده ، إذ قال
« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيي
حياة طيبة » .

وانظر الى التعبير بالحياة الطيبة ، كم هو شامل ودقيق
فهي قد تكون في ظل فقر أو غنى ، وقد تكون ف
آلام وأسقام او صحة وعافية . ولكنها على كل حـ
حياة طيبة تذيب بطيبها وطأة جميع ما قد يطوف بالع
من المحن ومظاهر الآلام . وتلك هي الغاية ، وذلك
سر السعادة . وهو أول الأمرين

ثانيهما : أن تعلم بأن هذه الحياة التي تعيشها اليوم
ليست إلا فصلاً قصيراً من قصة الحياة الكاملة التي جع
الله عز وجل من هذا الحيوان الناطق العجيب بطلاً لها
فكل مشهد تبصره عيناك في هذا الفصل ، له تتمة
ذيول في الفصل الذي يليه .

ومن ثم ، فإن أحداث هذه الحياة ، لا تقوم تقو
صحيحاً إلا من خلال فهم فصول القصة بأكملها ، وأي

ليها من خلال الانحصار في فهم هذا الجزء اليسير وحده ، عتبر جهلاً بالحقيقة وضرباً من الوهم والانخداع .

وإن شئت فقل : إن هذه الحياة التي تعيشها اليوم ، يست إلا رقعة صغيرة في لوحة كبرى لمنظر شامل عظيم رهيهات أن تدرك قيمة هذه الرقعة أو تفهم شيئاً من وقعها ومضمونها إلا من خلال رؤية مستوعبة دقيقة الى للوحة بأكملها .

وإنما شأن من ينتقد حكمة الخالق جل جلاله ، عندما بصر من حوله مظاهر البؤس والآلام ، كشأن ذاك الذي بصر الفصل الاول من رواية على المسرح ، ثم يسرع يحكم عليها ، من خلال ذلك الفصل وحده بالفساد والاضطراب و فقد معنى العدالة في وحيها ومفهومها .. أو كالذي يدنو فيحملق في رقعة صغيرة من لوحة رائعة عظيمة أبدعتها ريشة فنان ، فيحكم عليها من خلال ما يبصره فيها من الخطوط المتموجة والألوان المضطربة المتداخلة !..

ومن أعجب العجب أن يوقن إنسان بوجود الله تعالى

وبكونه إلهاً حكيماً يتصف بكل صفات الكمال ويتنز
عن جميع النقائص ، ثم لا يؤمن بهذه الحقيقة ، بل يصر
على أن هذه الحياة الدنيا هي المبدأ والمنتهى ، وأنها ستختم
على أحداثها المبتورة وصراعاتها المطلقة ، فيبقى الظالم ظالماً
دون أن يعاقب على ظلمه ، ويبقى المظلوم مظلوماً دون
أن ينال شيئاً من حقه ، وتختنق العدالة تحت حكم الله
تعالى وفي ظل رقابته ضمن رياح من العشوائية العاتية !.

أجل .. إن من أعجب العجب أن يوقن الانسان
بوجود الله عز وجل وعظيم حكمته ، ثم يصر مع ذلك
على هذا الاعتقاد !.

إن طفلاً من عقلاء الناس ، لا يمكن أن يؤلف في
مدرسته مسرحية عابثة بهذا الشكل . أفيؤلف الله الحكيم
الخبير قصة كونه العظيم هذا على مثل هذا العبث العجيب
الذي يتنزه عنه الأطفال .

وإن من أعجب العجب أن يتشبث الانسان بهذه العقيدة

ن عبث الحياة وعشوائيتها حتى وهو يسمع تحذير الله له
ن الوقوع في هذا الوهم الخطير :

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون ،
فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم)
المؤمنون : ١١٤ - ١١٥

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو
أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين)
الأنبياء : ١٦ - ١٧

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك
ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم
نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم
نجعل المتقين كالفجار) ص : ٢٧ - ٢٨

★ ★ ★

يا أخي القارىء :

تأكد أنه سوف يتم مرور الناس على معبر هذه الد
التي تعيش فيها . ولسوف يقوم الناس لرب العالمين
وستتكامل حينئذ عناصر القصة . فما من منكوب صا
مسلم كنت تتألم إشفاقاً عليه في الدنيا ، إلا وتتمنى أ
لو كنت مكانه في الآخرة ، وما من سعيد منعم مسرف
على نفسه في الدنيا ، إلا وتشفق على ما هو فيه من بؤس
وضنك في الآخرة .

ولسوف تتفسر لديك إذ ذاك الأحداث الغامضة الت
تمر بك اليوم .

ولسوف تسمع صوت الحقيقة ينبض به الزمان والمكان
كله : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم
إن الله سريع الحساب) .

وخير من كل هذا الذي سردته عليك في رحلة هذ
الكتاب : أن أضع بين يديك كلمات رائعة جامعة نطق به
رسول الله ﷺ ، فأبدع فيها صورة مختصرة صغيرة عن

ـة هذه الحياة بأكملها ، وأخرج منها أمام عينيك نموذجاً
ـغيراً لخط هذه الرحلة الإنسانية من أولها الى آخرها .
ـمع بأذن حرة واعية :

« ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا ، جائعـة
ـرية يوم القيامة ، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا
ـاعمة ناعمة يوم القيامة ، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها
ـين ، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكـرم ، ألا
رب متخوض ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له عند
ـه من خلاق . ألا وإن عمل الجنة حَزْن بربوة ألا وإن
ـل النار سهل بسهوة ، ألا يا رب شهوة ساعة أورثت
ـزناً طويلاً » [1] .

(١) رواه البيهقي والديلمي في مسند الفردوس وابن سعد
ـي الطبقات ، وحزن أي طريق ذو شدة وعقبـات . والربوة
ـلمكان المرتفع ، والسهل الارض المستوية . والسهوة الارض ذات
ـلتربة اللينة .

وأخيراً . . فإن كان شيء من هذا الكلام كله لم يقنعك
بعد ، فاعلم أنك في شك من وجود الله تعالى . وخير
لك إذن أن تعيد النظر بدقة وحذر في فكرتك عن ا
عز وجل ، من أن تضيع الوقت وترهق النفس فـــ
لا طائل فيه .

★ ★ ★

أبحاث الكتاب

أبحاث في القمة

هي سلسلة تعالـــج أهم المشكلات التي تشغـل بال
الجيـل المثقف اليوم ، من فكريـة أو دينيـــة أو
اجتماعيـــة ، تكتب بطريقة مبسطة وموجزة ، بحيث
يستفيد منها أكثر فئـات الناس على اختلاف طبقاتهم
وتنوع ثقافاتهم .

ومكتبة الفارابي ، تلتزم تجـاه قرائهـا بالمضي في
اصدار هـذه السلسلة ، على هـذا المستوى ، مستعينـة
بأقـلام صفوة كتاب هـذا العصر ، وأبرز مفكريـه
وعلمائـه .

وقد صدر منها الكتب التالية

١ - باطن الاثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين
٢ - الانسان وعدالة الله في الأرض
٣ - منهج تربوي فريد في القرآن
٤ - إلى كل فتاة تؤمن بالله
٥ - الاسلام ومشكلات الشباب
٦ - من هو سيد القدر في حياه الانسان

وجميعها من تأليف الدكتور

محمد سعيد رمضان البوطي